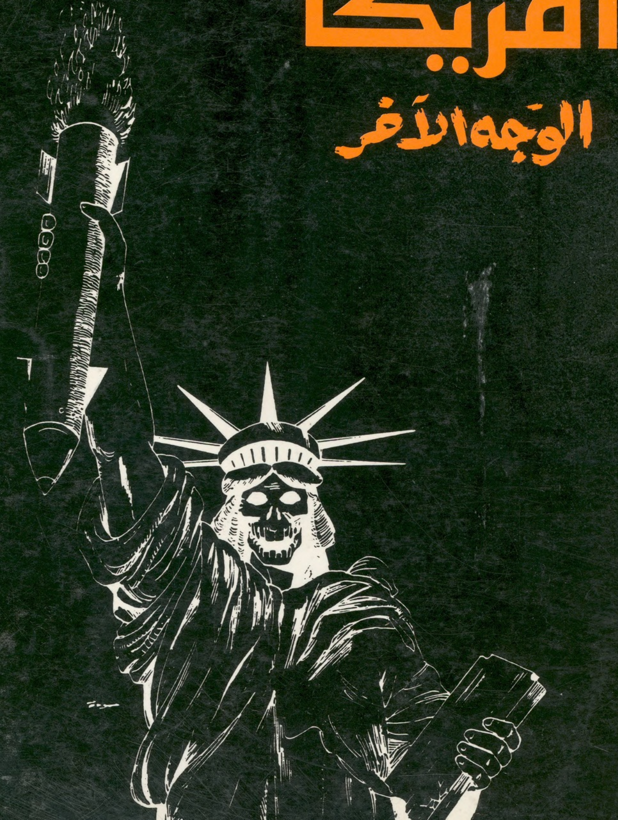
لَيلى أبوزَيد

أمريكا

الوجه الآخر



ليلى أبو زيد

أمريكا

الوجه الآخر

الطبعة الثانية 1991



خطوط الطاهر البلاوي (البرلمان)
رسم الغلاف بنعلي محمد (الاتحاد الاشتراكي)
تصميم الغلاف يوسف الزعيم (معهد التعريب)

الإهداء

إلى الشعب العراقي البطل الذي كان ضحية
حاجة الولايات المتحدة الأمريكية إلى التخلص من
عقدة هزيمة فيتنام، وضحية تحالفات باعت
للامبريالية الأمريكية الحق بالدولار الملوث وبالمصلحة
وبحصة من صفقة سوق الخليج وكرسي ملحق في
مائدة توزيع الفريسة، أهدي هذا الكتاب
ليرى ملامح أخرى من وجه أمريكا الآخر الذي أكره
على معاينة بعض دمامته من 17 فبراير إلى فاتح
مارس 1991

مقدمة الطبعة الثانية

طرأت الطبعة الثانية من هذا الكتاب فجأة، دون سابق تخطيط صباح فاتح مارس 1991. كنت قد شاهدت في السادسة صباحا في قناة سكاي نيوز البريطانية جورج بوش يخطب بعد وقف إطلاق النار في الخليج وقبل إعلان العراق قبوله لقرارات مجلس الأمن الإثني عشر. قال إن قوات التحالف قد حررت الكويت وأن الجيش العراقي هزم وأن النصر نصر لقوات التحالف والأمم المتحدة ثم تلا المذيع بلاغ إذاعة بغداد الذي جاء فيه أن العراق قد دخل التاريخ بوصفه وقف في وجه الأمبريالية والهيمنة الأمريكية والغربية.

وذهبت إلى العمل فقال زميلي في المكتب السيد الطاهر البلاوي : «كيف الحال هذا الصباح ؟» يعني حال الحرب. كان المغاربة قد تحولوا إلى محللين سياسيين وعسكريين فقلت : «أنا اليوم أكثر اطمئنانا لأن الهدف، هدف إسرائيل الذي تحارب لها أمريكا من أجله لم يتم :

1 ـــ القضاء على الجيش العراقي.
2 ـــ القضاء على صدام حسين.

قال : «هذا هو **الوجه الآخر لأمريكا ؟**» وتناول الكتاب من على مكتبي يتفحصه. كانت طالبة من معهد الترجمة بطنجة تترجمه إلى الإنجليزية في إطار رسالتها وكنت أراجع معها المصطلحات الأصلية. وقال : «هذا هو الوقت المناسب لإعادة نشره مع فصل جديد حول ما فعلته أمريكا بالعراق يكشف جيدا وجهها الآخر وسأتطوع لتخطيط العنوان وأتكفل بإيجاد من يضع تصميم الغلاف». واتفقنا على ذلك ثم قلت : «الهدف لم يتم لأن الجيش العراقي لم يقض عليه وإلا لدخلت قوى العدوان إلى بغداد أو لاحتلت البصرة على الأقل ولما أعلن بوش وقف إطلاق النار. لاحظ كيف يقيم مجلس الأمن لإعلان الحرب على العراق ثم يوقفها من ذات نفسه عندما تدور عليه الدوائر وكأنه ربها الأعلى ثم يقول إنها

حرب المجتمع الدولي ضد العراق. صدق من سموه فرعون القرن العشرين وبوش الكذاب على غرار مسيلمة الكذاب. والجنود العراقيون الذين وقعوا في الأسر كم عددهم ؟ 000 10 ؟ 000 20 ؟ 000 60 ؟ الجيش العراقي قوامه مليون جندي. أمس فقط قال كولين باول رئيس أركان القوات العسكرية الأمريكية (الذي يتولى منصبا مموها ودعائيا يوهم بانتفاء هضم حقوق المواطن الأمريكي الأسود)، قال إن المرحلة الموالية (بعد دخول الكويت) هي القضاء على صدام حسين». كانت أختي قد علقت على ذلك بقولها : «إنها أوامر شامير. قال لهم أريد رأس صدام» فقلت : «معاوية زمانه».

قلت لزميلي ذاك الصباح : «إنني مرتاحة لأن أمريكا فشلت في تنفيذ أوامر شامير ولأن العراق دخلت التاريخ بوقوفها في وجه الأمبريالية والهيمنة الأمريكيتين ولكون هذه الأخيرة بعد ستة أسابيع من القصف الوحشي المتواصل أفرغت فيه من أطنان القنابل ما يفوق عدة مرات وزن القنبلة الذرية التي ألقتها على هيروشيما دون أن تحقق هدفها» فأي نصر هذا الذي يتكلم عنه بوش ؟ هل كانت حربا متكافئة ؟ وحتى لو سلمنا جدلا بنتيجته هل نسمي ما أسفر عنه صراع بين رجل واحد من جهة ورجل يدعمه سبعة وعشرون رجلا نصرا ؟ يا له من نصر اجتمعت فيه أقوى دولة في هذا العصر بسبع وعشرين دولة على رجل واحد حتى لا أقول شعبا قوامه 18 مليون نسمة لأن بوش نفسه يقول إنه يحارب صدام وليس الشعب العراقي.

هذه هي النقطة المخزية في هذه الحرب والنقطة المخزية الأخرى هي إعلان الدولة العظمى حربا هدفها قتل رئيس دولة والنقطة المخزية الثالثة تسخير كل ذلك الخراب للقضاء على تنمية بلد نامي والقضاء على قوته العسكرية لأنها تهدد إسرائيل والنقطة الرابعة إعلان، الدولة العظمى حربا استهدفت المنشآت المدنية ومصانع حليب الأطفال ومخابىء المدنيين وبيوتهم ودكاكينهم ومستشفياتهم ومتاحفهم ومضارب بدوهم ونخلهم وحتى مقابرهم.

يا إلاهي ! هل يكون هذا قد حدث في القرن العشرين ؟ مازلت أنتبه وأتساءل : «ربي هل يكون هذا قد حدث ؟ هل تكون أمريكا قد عادت إلى همجيتها الفيتنامية ؟» منذ أربعة عشر قرنا خاطب أبو بكر الصديق جيش المسلمين المتوجه إلى الشام قائلا :



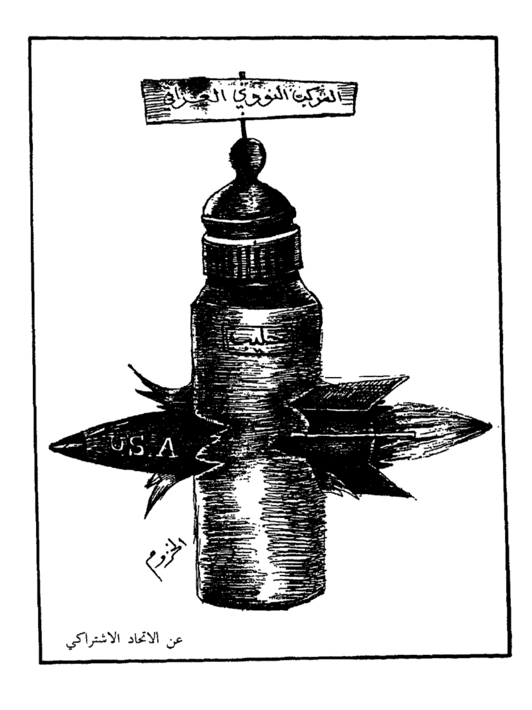
أيها الناس قفوا. أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعفروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة.

رحم الله أبا بكر الصديق. أشهد أن منظر النخلة المقطوعة بفعل القنابل الأمريكية والتي تنقلها جارفة كجسد مبتور أثر في أكثر من مناظر هدم المباني. كانت جيوش الإسلام تحارب لنشر الإسلام فكانت تحارب بخلق وتنشر في دربها العدل والأمن والسلام لأنها لم تكن تحركها غاية أمبريالية ولا هيمنة ولذلك ثبت غرسها في كل أرض دخلتها تقريبا ومد الجذور على عكس جيوش الاستعمار الغربي.



عن الاتحاد الاشتراكي

وأعود من هذا السرحان المريح، من روعة الخلق العسكري لجيوش الإسلام إلى السلوك الهمجي لجيوش الولايات المتحدة الأمريكية وأقول كيف تسخر دولة «عظمى» كل ما تملك من وسائل دمار شيطاني لتخريب طرق دولة نامية وتخريب مطاراتها ومحطات مياه الشرب فيها ومجاريها ؟ ربي هل يستطيع إنسان أن يفعل هذا ؟ إن أشد ما يبعث على الفزع قوة تملك آلة الدمار ويسكنها الشيطان. وهذا هو الواقع المريع. كل ضحايا أمريكا وصفوها بالشيطان : مالكوم إكس والإيرانيون والعراقيون... على الشعب الأمريكي أن يفكر في ذلك جيدا لأن كل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا على خطأ.



عن الاتحاد الاشتراكي

قالت الناس : «هذا دليل على أن الغرب لا يرحم». «أنتم وحوش !» قالتها امرأة في الأردن لمراسل هيأة الإذاعة البريطانية «كلكم !». ونعتت الولايات المتحدة بقلعة الشر العالمي ووصفت الصحافة المغربية بوش بجورج هولاكو (العسكري المغولي الذي هدم بغداد ومحا آثارها العباسية الرائعة) ووصف بأبرهة الذي جاء إلى الكعبة في القرن السادس ليهدمها وبهادم الحضارة وهادم العمران وفرعون القرن العشرين وديناصور العصر والشيطان وإبليس و«حلوف الغابة» والسفاح إذ نادت المسيرة المغربية : «Georges Bush assassin !·Georges Bush assassin» ووصف جيشه بالجيش المرتزق ونشرت له رسوم كاريكاتورية تظهره في هيأة مصاص دماء يطير فوق بغداد ويحمل تحت جناحيه الصواريخ ونشرت رسوم أخرى تظهره يجلس إلى مائدة عليها أطفال وبيديه شوكة وسكين وبين فكيه طفل يحمل قارورة حليب فارغة ونشر له رسم آخر يربت فيه بيد على بطة ملوثة بالبترول وباليد الأخرى يضرب بمدفع رشاش طفلين (فلسطيني وعراقي). ونشر له رسم آخر وهو يضع على رأسه كوفية وعقالا ويقول لشيوخ الخليج : «أنا ربكم الأعلى !» وهي الكلمة التي كان يقولها فرعون. وأطلقت شعارات مثل «الله أقوى من أمريكا»، «يكفينا من الحروب، أمريكا عدوة الشعوب»، «جورج بوش



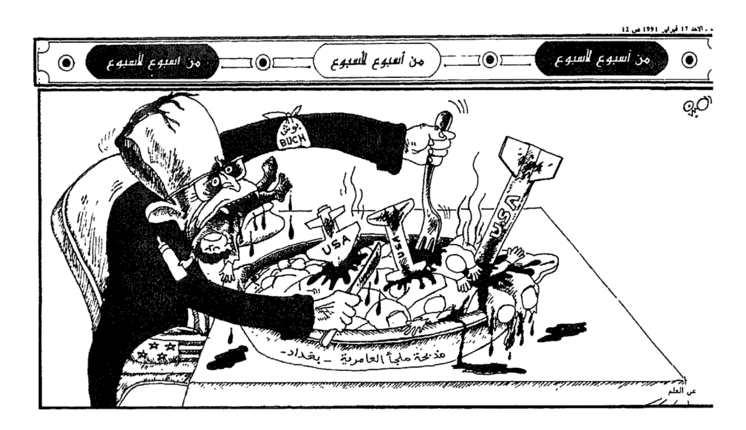
المهاوش صيدو صدام بالقشاوش». وهي شعارات تعيد إلى الذاكرة برنامجا كانت تبثه إذاعة القاهرة بعد حرب 67 عن الولايات المتحدة كانت تسميه «الوجه القبيح». ووصفت المساعدات الأمريكية بالخبز المغمس في الدم حيث قال نائب برلماني أردني عندما أعلنت أمريكا عن تخفيض مساعداتها للأردن بالثلثين عقابا لها على مساندة العراق : «لا نريد خبزا مغمسا في الدم» وأطلقت الصحافة المغربية تسميات تلقفها منها الشعر فقال الزجال المغربي أحمد الطيب لعلج :

شرينا «هولاكو» بالمال طلع اسمه بوش
والسكوت والحياد وشرينا حتى التشويش
ولقمنا لفمام كلها وخلينا الوحوش
وحوش الحضارة تهدم ونكولو ما عليش

باعوك يا بغداد بالعدس والفول المدمس
وشوية بقشيش وحشيش ومات الإحساس
بأموال البناء هدمو كل ما يتقدس
فربوع العراق الصامد، الرافع الراس

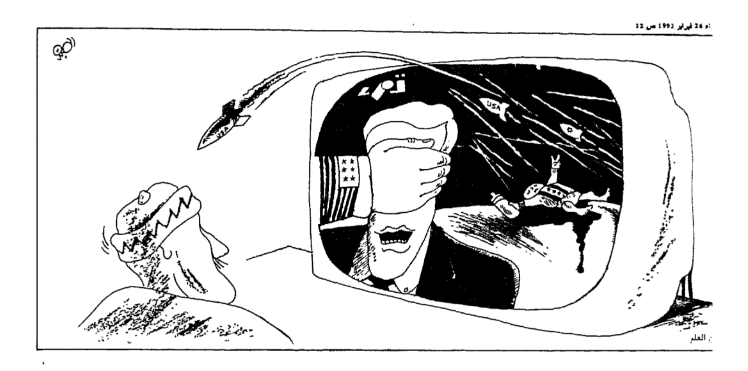


عن العلم



ونشر فريق من علماء المغرب تصريحا جاء فيه : «بالهجوم الكبير الوحشي الذي قامت به الدول الغربية الصليبية الصهيونية خاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولاندا بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ليلة الخميس الماضي 1411/7/1هـ ــ 1991/1/17م على الشعب العراقي العربي المسلم، تبرهن هذه الدول ذات التاريخ الاستعماري الأسود في العالم العربي والإسلامي خلال القرون الأخيرة على أنها لم تتخل حتى اليوم عن نزعتها الصليبية العدائية للعرب والإسلام والمسلمين».

وقال المهدي المنجرة نائب رئيس اليونسكو سابقا وأستاذ العلاقات الدولية في كلية الحقوق بالرباط : «إن كل ما يصدر عن أمريكا الآن أصبح متوقعا، وهدف الحرب هو الهيمنة، حتى أن تصرفات بوش أصبحت نوعا من الهستيريا يغذيها حقد شخصي على صدام وحقد شخصي على العراق. ورغم أني أستاذ علاقات دولية فإني لم أفهم بعض التعابير والتسميات التي أصبح جورج بوش يستعملها. رجال البيت الأبيض يسمون صدام حسين بالرجل الكذاب وابن... son of a bitch. هذا الكلام البذيء قيل ويقال داخل البيت الأبيض ونشرته



صحيفة الهرالدتريبيون الأمريكية يوم 18 فبراير. لما يتلفظ رئيس دولة بهذه الألفاظ ؟ بهذه الطريقة تصبح التحاليل السياسية والاقتصادية للموقف صعبة جدا. التحاليل هنا تصبح من اختصاص علماء النفس».

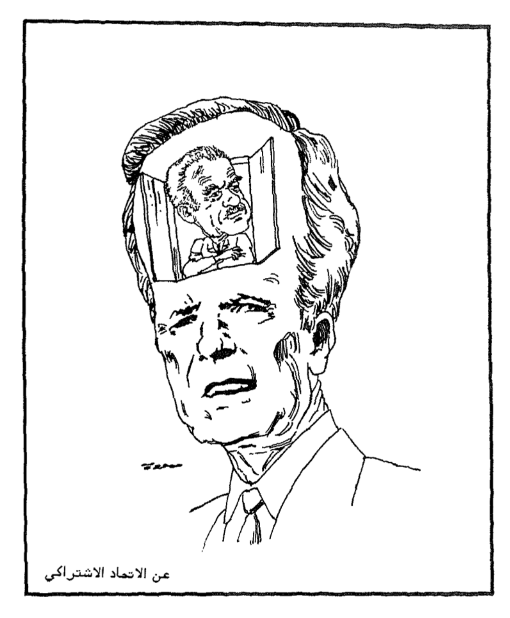
وقال الجنرال المصري سعد الدين الشاذلي : «الذي أستطيع أن أقوله أن ما يحدث اليوم في العراق ليس حربا بالمعنى المفهوم، إنها جريمة ضد الإنسانية، إنها مجزرة ترتكبها دول التحالف بما فيها الدول العربية ضد العراق، ضد شعب العراق وضد جيش العراق، إنها مجزرة بين طرفين غير متكافئين : طرف يملك القوات الجوية وله السيادة الجوية وطرف لا يملك أن يدافع عن نفسه ضد هذه القوات».

وقالت نوال السعداوي الكاتبة المصرية : «إنها حرب الاستعمار الوحشي الذي يريد أن يقتل ملايين العرب من أجل البترول وقد سبق لهذا الاستعمار الأمريكي الأوروبي أن قتل (بواسطة أداته إسرائيل) ملايين العرب من فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ومصر، ولاتزال آلة الحرب الإسرائيلية الأمريكية تقتل الآلاف من الشعبين الفلسطيني واللبناني وتحتل الأراضي العربية. ومن المضحك أن يعلن جورج بوش في التيلفزيون أنه يضرب العراق بآلاف القنابل والصواريخ المدمرة ليبدأ نظاما عالميا جديدا للسلام (...) لكن هزيمة الإدارة الأمريكية بدأت حين

تهدلت عضلات وجه جورج بوش وأصابه الغضب والغم الشديد وهو يعلن في التيلفزيون قائلا : «يبدو أنها ستكون حربا طويلة وصعبة»».

وأدانت الوفود المشاركة في الملتقى العالمي لنساء السلام الذي احتضنته تونس يومي 16 و17 فبراير 1991 المخططين لهذه الحرب وعلى رأسهم الولايات المتحدة وشجبت الأمم المتحدة التي أعطتها مشروعيتها وظلت صامتة أمام عمليات التخريب والتهديم وأطنان القنابل التي تسقط على المدنيين وذكرت ما يلحق العراق من خسائر مادية وبشرية وحضارية تحت مظلة القانون الدولي. وقالت أندري ميشال العالمة الاجتماعية الفرنسية في هذا الملتقى : «إن هذه الحرب حرب أمبريالية لبسط النفوذ الأمريكي على المنطقة وحرب استعمارية تهدف إلى الاستحواذ على خيرات العرب وحرب عنصرية لأنها ضد العرب وحضارتهم وتقدمهم (...) إن الهجوم الأمريكي لا يهدف إلى تحرير أي بلد عربي وإنما يهدف إلى الاستيلاء على البترول والتحكم في أثمانه وتوزيعه. وما النظام العالمي الجديد الذي خططت له أمريكا إلى تكريس للفوارق الاقتصادية بين الشعوب واستغلال الدول الضعيفة والفقيرة والسيطرة عليها. (...) وإذا كان الغرب يرسل أطنان القنابل لسحق العراق ومحوه فإنه أيضا يقنبل الرأي العام الغربي بإعلام كاذب ومزيف يقتل وعي المواطن ويخنق حريته».




عن الاتحاد الاشتراكي

وقال روجي كارودي الفيلسوف الفرنسي في نفس اللقاء : «إن هذه الحرب لا تشبه الحروب الاستعمارية السابقة لأن الاستعمار الذي نشاهده اليوم استعمار جماعي متعدد الجنسيات منضو تحت لواء المستعمر الكبير، الولايات المتحدة الأمريكية. (...) كيف يتشبث بالقانون الدولي من يخرقه يوميا باحتلال القدس والجولان ونسف حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة وهو أبرز دليل على ما يراد بهذا القانون الدولي. (...) إن القانون الدولي لم يطبق عندما احتلت القدس ولكنه أصبح واقعا ملموسا وجب تطبيقه عند دخول العراق إلى الكويت. حقيقة فالقدس ليست إلا مدينة مقدسة أما كويت سيتي فهي مقدسة ألف مرة لأنها خزان للبترول».

ووجه الملك حسين يوم 6 فبراير 1991 خطابا بليغا ومؤثرا إلى العرب والمسلمين قال فيه :

أيها الإخوة المواطنون، أيها العرب في كل مكان، يا أمة الإسلام، أيها القابضون على جمر الإيمان والرافضون مذلة الوطن، الصادقون، الثابتون في انتمائكم عقلا وقلبا، منطلقات وأهدافا، فكرا وسلوكا، أيها الحريصون على حاضر الأمة ومستقبل أجيالها، إلى كل واحد منكم أزجي تحيتي ولكل فرد فيكم أبعث بخالص محبتي ومودتي. أختار هذه اللحظة الصعبة للحديث إليكم، حيث يقتضي الشرف العربي والواجب الديني أن أخاطبكم اليوم عشية الأسبوع الرابع من أيام هذه الحرب الشرسة الشاملة التي فرضت على العراق الشقيق وتستهدف وجوده ودوره ونهوضه وعنفوانه، كما تستهدف حقه في الحياة الحرة الكريمة وحرصه على مواصلة دوره التاريخي والحضاري والإنساني الذي كان من بابل وبغداد والبصرة بدء امتداده في حضارة البشرية وتقدمها العلمي والثقافي.

إن العراق أيها العرب والمسلمون الآن يدفع ضريبة انتمائه إلى أمته دما طاهرا زكيا وهو الذي سبق وأن دفع دونما تردد أو تقاعس ضريبة الانتماء والدم في كل المعارك التي خاضها العرب أو فرضت عليهم دفاعا عن ثرى

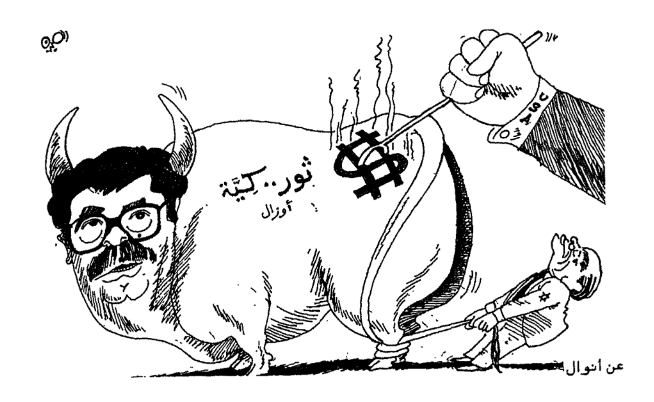
الأربعاء 27 فبراير 1991 ص 10



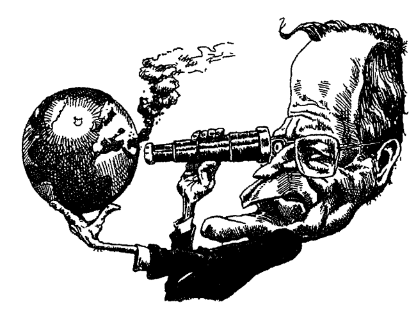
عن العلم

العروبة في فلسطين وسوريا ومصر والأردن وفي كل مكان. وما هان عليه همكم دوما فهل يهون علينا دم العراقيين شيوخا وأطفالا ونساء ورجالا ؟! فأي وزر وأي عار على من يهون عليهم هذا الدم العربي المسفوح بنار هذه الحرب الجائرة ؟!

لقد عرف العالم من قبل حروبا قاسية لكن حربا كهذه التي تشن على العراق لم يشهدها العالم من قبل وربما لن يشهد مثيلا لها من بعد، حيث تلتقي جيوش أكبر الدول وأقواها بعد أن فتحت لها ترسانات هائلة تزخر بأحدث وأخطر الأسلحة على البر وفي البحر والفضاء، وهي أسلحة كانت قد أعدت من قبل حلف عسكري عالمي لمجابهة حلف عسكري مضاد قادته دولة عظمى. وتوجه اليوم مجتمعة نحو بغداد الرشيد وبصرة الفقه والشعر والنخيل وكوفة علي كرم الله وجهه والنجف الأشرف وكربلاء والديوانية والموصل وكل مدينة وقرية عراقية من خلال الطائرات والبوارج والغواصات والصواريخ التي أصابت من ضمن ما أصابت مساجد العراق وكنائسه، مدارسه ومتاحفه، مستشفياته ومصانع حليب أطفاله وأحياءه السكنية ومضارب بدوه ومحطات توليد الكهرباء وشبكات المياه. وقد وقع هذا كله على امتداد ساعات الحرب منذ اندلاعها ليأخذ صورة الحرب التي تستهدف محو إنجازات العراق وإرجاعه إلى الحياة البدائية باستخدام أحدث وسائل التكنولوجيا



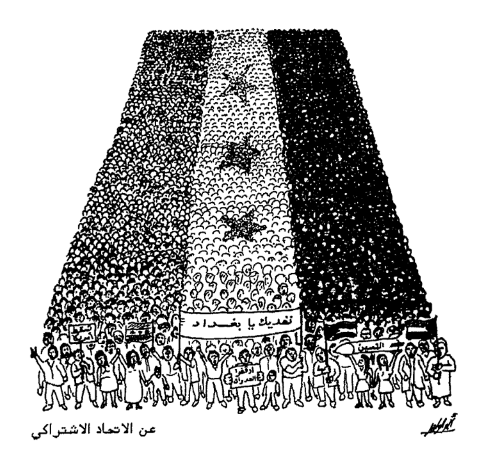
عن أنوال



Dessin paru dans « The Economist » du 26 janvier.

المدمرة. وتكون أولى ضحايا هذه الحرب قيم الحق والعدل والسلام. وتكون أولى فرائسها كل الآمال والأماني التي ظلت ترنو إليها الإنسانية منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية في أن تكون تلك الحرب آخر المآسي البشرية وفي ألا يعيش الإنسان ليرى المجتمع الإنساني قاتلا وضحية، لكن آمالنا وأمانينا كأمة وآمال وأماني المجتمع الإنساني كله تقف الآن أمام خيبة حقيقية بتحويل أرض العراق إلى ساحة حرب عالمية ثالثة. أيها الإخوة المواطنون، أيها العرب، يا أمة الإسلام،

إن المفارقة العجيبة في هذه الحرب أنها تنفذ تحت عباءة الشرعية الدولية ويرتكب إثمها باسم الأمم المتحدة التي أنشأتها الإنسانية للحفاظ على السلام والأمن والعدل وتسوية كل الخلافات والنزاعات بالحوار والمفاوضات والدبلوماسية وإذا كان هذا هو النموذج عن دور الأمم المتحدة في النظام العالمي الجديد فأي مستقبل أسود سيكون للشعوب والأمم وأية شرعية دولية ستكون الملجأ والملاذ للذين يسعى الأقوياء لقهرهم وإذلالهم وقتلهم وانتزاع كل حقوقهم التي كفلتها شرائع الله وكل المبادىء والقيم والمواثيق التي بنيت عليها الأمم المتحدة ؟ إننا ندرك الآن تمام الإدراك الدوافع الحقيقية لمصادرة حقنا العربي في معالجة قضايانا والهيمنة على الأمم المتحدة للحيلولة دون قيامها بدورها وسد الأبواب أمام كل جهد سياسي مخلص لإنهاء أزمة الخليج. ويزعم



عن الاتحاد الاشتراكي

الآن أن كل جهد سياسي ممكن لحل الأزمة قد استنفذ خلال الشهور الخمسة التي سبقت اندلاع الحرب وهذا غير صحيح، فلو أن حجم الجهد الذي بذل للإعداد لهذه الحرب بذل للتسوية السلمية لما وقعت هذه الكارثة، فضلا عن أن الحرب الجارية بآثارها المدمرة لا تتناسب مع الغاية الإنسانية لقرارات الأمم المتحدة التي اتخذت بقصد إعادة الأمن والسلام لمنطقة الشرق الأوسط.
وفي المقابل نرى أن الصراع العربي الإسرائيلي قد ظل بعيدا عن أي جهد صادق وحقيقي للبحث عن تسوية عادلة له وظل الشعب العربي الفلسطيني وأمته ينتظران تنفيذ قرار واحد من قرارات الأمم المتحدة الرافضة للاحتلال الإسرائيلي والمطالبة بإنهائه. وبالرغم من مرور نحو أربعة وعشرين عاما على احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والمرتفعات السورية ومرور تسعة أعوام على احتلال جنوب لبنان، فإن شيئا مما انتظرنا لم يتحقق، ومع ذلك لم نعلن يأسنا من الأمم المتحدة وظلت القوى الكبرى تؤكد على أن الحل السياسي ممكن. أما إزاء أزمة الخليج فقد اختارت الأطراف العربية المعنية منذ البداية أن ترفض كل حوار سياسي عربي مع العراق وسد الأبواب أمام كل جهد يمكن أن يبذل للحيلولة دون تدويل المسألة وحل الأزمة مباشرة بمعالجة كل



أسبابها ومسبباتها وآثارها. وقد تم إحباط وإجهاض كل مسعى خير كنا وغيرنا من الأشقاء المشفقين القلقين على مصير أمتنا أطرافا فيه. لماذا ؟ لأن الهدف الحقيقي من وراء هذه الحرب المدمرة كما هو حجمها وكما تؤكد تصريحات أطرافها وكما برهنت عليه مجريات الحرب هو تدمير العراق وإعادة ترتيب أوضاع المنطقة بشكل أخطر بكثير على أمتنا حاضرا ومستقبلا، مما رتبته اتفاقية «سايكس ــ بيكو» بحيث يوضع الوطن والأمة والتطلعات والثروات تحت الهيمنة الأجنبية المباشرة وتمزق كل الروابط بين أجزائها فتضعف فوق ضعفها وتتشرذم فوق تشرذمها وتهون فوق هوانها. إن الحديث عن نظام عالمي جديد ملامحه تدمير العراق وقدراته واستمرار مثل هذا الحديث في ظل هذه الحرب يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية هذا النظام والشك في مقاييسه ومواصفاته.

إن النظام العالمي الجديد الذي نرنو إليه هو ذلك النظام الذي يسوي بين الشعوب إزاء حقوقها في الحرية والتقدم والرفاه ويعالج قضاياها بنفس المقاييس الإنسانية والمبدئية بغض النظر عن أية اعتبارات أو مؤثرات. النظام العالمي الجديد المطلوب هو ذلك النظام الذي لا يظلم تحت مظلته بلد ولا يفرق بين الشعوب والأمم بل يقرب بينها جميعا في إطار الاحترام المتبادل والتعاون المثمر لخير كوكبنا الأرضي ومن عليه، وهو ذلك النظام الذي يؤمن

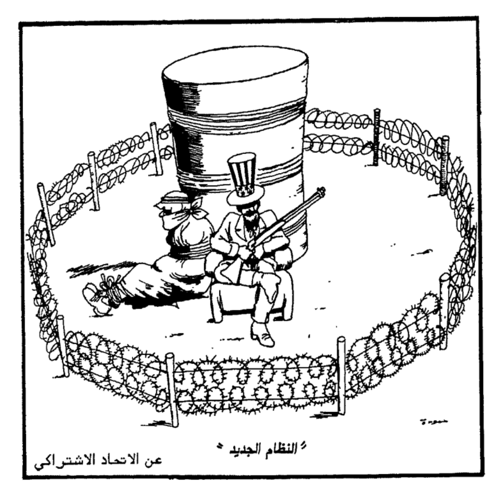
بالحريات العامة ويحمي الحريات الخاصة ويحترم حقوق الإنسان ويوطد أركان الديموقراطية ولا ينكر على الشعوب العربية حقها في كل هذا.

إن طبيعة التحالف العسكري العامل ضد العراق تكشف كل أهدافه القريبة والبعيدة، فعندما تكون إسرائيل داعمة لهذا التحالف وتكون هناك دولتان، واحدة عربية والأخرى إسلامية تقيمان علاقات طبيعية وسياسية مع إسرائيل وتتنافس قياداتهما في أخذ الموقع المتقدم من التحالف وتأكيد الرغبة والحماس في تدمير العراق نقول عندما تكون الصورة هكذا فإن من السهولة إدراك أن هذه الحرب هي حرب على العرب والمسلمين جميعا وليس على العراق وحده. وعندما تقدم الأرض العربية والإسلامية قواعد لجيوش الحلفاء ينطلقون منها لتدمير عراق العروبة والإسلام وعندما يوضع المال العربي في تمويل هذه الحرب وبكل هذا السخاء الذي لم يعرفه العرب ومنهم نحن وإخوتنا الفلسطينيون بحكم مسؤولياتنا القومية وموقعنا الجغرافي، أقول عندما يتم كل هذا فإن أي عربي أو مسلم يستطيع أن يتصور حجم الجريمة التي ترتكب بحق دينه وأمته.



- قل له إنه يشرف أمريكا وقوفه بجانبنا للدفاع عن الديموقراطية.
- ما هي الديموقراطية؟

عن فكتوريا تايمز ، فكتوريا (كندا) .



« النظام الجديد »

عن الاتحاد الاشتراكي

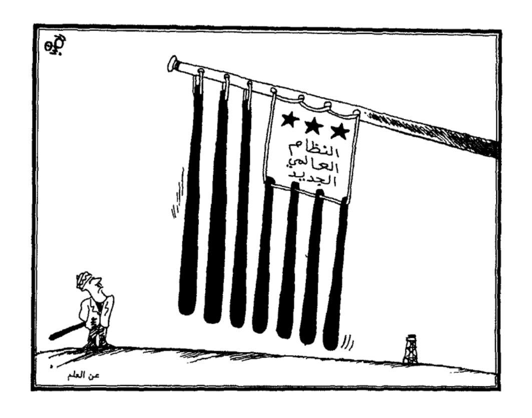
أيها الإخوة المواطنون،

لقد حملنا مسؤوليتنا نحو عروبتنا وإسلامنا ونحو الأمن والسلام العالميين منذ البداية وبذلنا كل جهد ممكن في سبيلها. ولا يؤلمنا أبدا أن تكون المكافأة لنا عقوبات متلاحقة على بلدنا وشعبنا بل إن هذه العقوبات كشفت للعالم كله أنها الثمن الذي يجب أن ندفعه لأننا حاولنا منع الكارثة التي دبر لها بليل وخطط لها لكي تقع، وجاءت محاولات حرماننا من الحصول حتى على احتياجاتنا من النفط شكلا جديدا من أشكال العقوبات المفروضة علينا لا لشيء إلا بسبب موقفنا المبدئي، لأننا لسنا طرفا في النزاع وجزءا من التحالف نتحرك على إيقاع اللحن الموضوع مسلوبي الإرادة والحق والقدرة على إبداء رأينا الحر الذي لا نتنازل عنه لأنه يساوي حقنا البشري في استنشاق الهواء الذي لم يقنن بعد. ومع هذا، فإن الأردن بشعبه وقيادته سيظل على موقفه، مؤمنا بأن فرص السلام ماتزال قائمة وأن العودة إلى هذه الفرص هو أقل كلفة وأصدق تعبيرا عن الالتزام بالقيم والمبادىء من مواصلة هذه الحرب الفتاكة بالإنسان وبالحياة.

إن أصوات الملايين ترتفع الآن في كل بلد وداخل دول التحالف وكلها تطالب بالسلام وبالتوقف عن قتل الأطفال وتدمير البيوت وحرمان المرضى من الدواء. وأعرف كما تعرفون أنه في مقابل هذه الأصوات يقف قادة سياسيون وعسكريون وفي طليعتهم ويالللأسف بعض العرب الذين كانوا ومازالوا يحرضون على شن هذه الحرب ومواصلتها. فأي الأصوات ستنتصر في النهاية : أصوات السلام والمحبة والعقل والحق ؟ أم أصوات الحرب والكراهية والجنون والباطل ؟

لقد أطلقنا نداءنا عاليا نحن وإخوة لنا لوقف العمليات العسكرية وإفساح المجال للعمل الدبلوماسي السياسي لمعالجة المشكلة ولكن ما من مجيب حتى الآن. وكم حذرنا قبل اندلاع الحرب من آثارها وجراحاتها التي ستفتح وعواقبها التي ستتسع دوائرها ومآسيها البشرية والاقتصادية والبيئية وبأن الحرب آخر ما يلجأ إليه وبعد استنفاذ كل وسيلة للحيلولة دون وقوعها فذهبت نداءاتنا وتحذيراتنا أدراج الرياح.

سينتصر الحق بإذن الله، أيها الإخوة وستنتصر الأمة لأن بانتصارها تنتصر الإنسانية على أعدائها وتنتصر الحياة على الموت والمحبة بين الشعوب على الرغبة في زرع الأحقاد وتبادلها ولسوف يتبين لكل الذين راهنوا على أن



العلم - الاثنين 4 مارس 1991 ص 10



عن العلم

أمتنا ستنقسم على نفسها انقسام رموزها وأنها أمة ميتة بأنهم مخطئون وخاسرون، لأنها ستظل بإرادة الله وعونه أمة قوية عزيزة حية. «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون».

فلنتق الله ولنتذكر بأن الحال إذا استمر على ما هو عليه فلن يجني ثماره سوى الطامعين في أرضنا وثرواتنا وفي المقدمة منهم إسرائيل. فها هي بوادر تقاسم المغانم تطفو على السطح وها نحن نسمع ونقرأ عن خطط مؤداها السيطرة على مواردنا وثرواتنا وحرية قرارنا وخنق آمالنا وسلب حقوقنا. هنالك الحديث عن أحلاف عسكرية ستقام وقواعد ستنشأ وقوات أجنبية ستبقى على الأرض العربية وقيود ستفرض لتقييد تطورنا وحل للقضية الفلسطينية أعد أو سيعد وفق ما يراه الآخرون ووفق إرادة القوي المفروضة على الضعيف ولا إخالنا نتصور أن مثل هذا الحل سيلبي الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني على ترابه الوطني. فإلى كل الشرفاء من قادة العرب والمسلمين هذه صيحة عربي هاشمي، ان تلتقي كل جهودنا لوقف هذه المأساة وإنقاذ شعب العراق مما يراد به وأمتنا مما يخطط لها ووضع نهاية لهذه الحرب.

إن نقطة البداية لكل ذلك هو بالعمل الفوري الجاد لكي توقف قوى التحالف إطلاق النار تمهيدا لإجراء حوار مسؤول بين الأطراف المتنازعة،

حوار عراقي أمريكي وآخر عربي ـ عربي يحتكم إلى العقل وتوازن المصالح والشرعية الدولية شرعية الأمن والسلام والعدل والمساواة، فهذه الحرب بتدميرها العراق قد تجاوزت الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة في قراراتها كما أن تصريحات أطراف التحالف تؤكد ذلك فأين هي الأمم المتحدة ؟

إن البديل عن وقف إطلاق النار هو دمار العرب والمسلمين وذلهم وامتهانهم واستغلالهم والدوس على شرفهم وكبريائهم وأمانيهم المشروعة وزرع بذور الحقد والكراهية والنزاع بين الشعوب، وسنبقى فوق ساحتنا الأردنية العرب العرب والنشامى النشامى والرجال الرجال. سنبقى الشعب الجيش والجيش الشعب على أعلى درجة من الاستعداد للدفاع عن وطننا. وإن فرضت علينا المعركة فسنكون لها وستكون لنا إحدى الحسنيين، فقلوبنا وصدورنا عامرة بالإيمان وبالثقة والحمد لله.

ومن عمان العرب العرب أبعث للأهل في فلسطين عظيم اعتزازنا بهم وبصمودهم وبقدرتهم على احتمال المعاناة حيث يتم اعتقال شعب بأسره داخل بيوته فلا عمل ولا دواء ولا مصادر رزق ولكنه الشعب المؤمن المرابط الصامد بجوار الأقصى والقيامة.



عن الاتحاد الاشتراكي

أما أهلنا في العراق فأين الكلمات التي تدنو من قمة شجاعتهم وشموخهم وصلابتهم وتحملهم وقدرتهم الفريدة على مواجهة ثمانية وعشرين حليفا وثمانية وعشرين جيشا تتقدمها أكبر وأقوى جيوش العالم عدة وعتادا، لهؤلاء الأهل نبعث كل المحبة والاعتزاز وهم يدافعون عنا جميعا ويرفعون عاليا راية ــ الله أكبر ــ راية العروبة والإسلام، فكل التحية للعراق، لجيشه البطل وشعبه الصامد الشجاع، كل التحية لنسائه الماجدات ولأطفاله البواسل ولشيوخه الذين يواجهون بصلابة المؤمن الطائرات والصواريخ وأطنان القنابل.

وتحية خاصة مقرونة بكل التقدير والاحترام لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني لصلواته ونداءاته المتواصلة من أجل السلام في الشرق الأوسط وللشعوب والشخصيات العالمية في كل مكان التي خرجت تندد بالحرب وتدعو للسلام وتحية اعتزاز وإكبار لكل الإخوة العرب والمسلمين وكل الذين خرجوا منذ اللحظات الأولى للحرب ليقفوا إلى جانب الحياة والسلام ضد الموت والدمار والعدوان. وأوجه الشكر والامتنان لكل الباحثين عن الحقيقة والعاملين على نشرها من موقع حرصهم عليها واحترامهم لها من إعلاميين وسياسيين وأكاديميين ممن يعيشون بيننا ويؤدون واجبهم بما تقتضيه الأمانة وشرف المهنة.

«لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما» صدق الله العظيم.

وهز هذا الخطاب الإدارة الأمريكية وحكام تل أبيب فبادر بوش إلى التصريح بأن القول بتدمير العراق غير صحيح وبادرت إدارته إلى معاقبة الأردن على مساندته للعراق شأن غيره، حتى الشعب المغربي الذي خرج إلى الشارع للاحتجاج على تقتيل الشعب العراقي وتدمير تنميته في مظاهرة وصفتها الصحافة الغربية بالعملاقة توصلت صحفه بورقة مدسوسة بين نشرات المصلحة الإعلامية للسفارة الأمريكية بالرباط حافلة بالضغط والتهديد ورد فيها : «هل تقدرون العواقب السلبية التي يمكن أن تترتب عن موقف عدائي تجاه تلك الدول المكونة للتحالف الدولي على الاقتصاد المغربي وخاصة في مجال السياحة والاستثمار الأجنبي ؟...» وقالت جريدة أنوال التي أوردت الخبر :

إن ذلك يرافقه سيل من الأسئلة حول الموقف من «اجتياح الكويت» من قبل العراق حول «انتهاك حقوق الإنسان في الكويت» ومن «حروب» العراق ضد المسلمين و«استخدام الغازات السامة ضد الأكراد» و«جرائم الحرب» المرتكبة من طرفه، هذا بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول «ضرب المدنيين» و«الإرهاب» والأسلحة الكيماوية والجرثومية وحول إمكانية الثقة في «النوايا العراقية..» وما يمكن الإشارة إليه بخصوص مجمل هذه التساؤلات هو أن الولايات المتحدة الأمريكية ـــ من حيث الأصل ـــ فاقدة لأي حق ولأية صلاحية للحديث عن حقوق الشعوب وحقوق الإنسان والأسلحة المحرمة وحماية المدنيين ومقاومة الإرهاب... إلخ. إن الولايات المتحدة ككيان قامت في أساسها على اغتصاب الأرض وإعدام الشعب المالك لهذه الأرض. لكن الولايات المتحدة لم تقف عند هذا الحد بل واصلت وتواصل ابتلاع حقوق الشعوب في تقرير مصيرها وممارسة العدوان على هذه الشعوب وإسقاط حكومات وإقامة أخرى بواسطة التدخل المباشر وبواسطة الإرهاب



المكشوف. من أمثلة التدخل المباشر نشير على سبيل المثال إلى التدخل في الدومينكان، في فيتنام، في الكامبودج، في غرينادا، في بناما. ومن أمثلة الاعتماد على التآمر والإرهاب الإطاحة بالرئيس مصدق في إيران سنة 1953 والرئيس جاكوبو آربتر جوزمان غواتيمالا سنة 1954 والتآمر على القائد الكونغولي باتريس لومومبا طوال صيف 1960 وإلى حين مقتله في 1961 والإطاحة بالرئيس الغاني قوامي نكروما سنة 1966 والمساهمة في انقلاب الكولونيلات في اليونان واغتيال سلفادور الليندي والإطاحة بنظامه في الشيلي سنة 1973. هذا بالإضافة إلى اغتيال العديد من قادة حركة التحرر : موموندلاني في الموزمبيق، كابرال في غينيا بيساو، كاريوكا في كينيا، إضافة كذلك إلى العديد من المحاولات الفاشلة مثل محاولات اغتيال عبد الناصر سنة 1954 وكاسترو طوال سنوات عديدة والقذافي من سنين (...).

ويمكن لأي طرف دولي أن يدعي الغيرة على حياة المدنيين والحرص على عدم استخدام الأسلحة المحرمة لكن الولايات المتحدة لا يمكن لها ذلك مطلقا نظرا لجرائمها التي لا تعد ولا تحصر. ويكفي أن نذكر من بينها جريمة هيروشيما وناكزاكي وجرائم فيتنام والكامبودج وحتى العدوان الجاري على العراق ورغم أن الحق الدفاعي لهذا الأخير يبرر له استخدام ما يراه مناسبا لرد العدوان فإن الولايات المتحدة وحلفاءها قد قتلت آلاف المدنيين وأزهقت أرواح الأطفال والنساء وهم نائمون. وفوق ذلك فقد كانت البادئة باستخدام الأسلحة المحرمة عندما استعملت قنابل النابالم ضد القوات العراقية قبل اندلاع المعركة البرية (...).

ويدخل ضمن الحملات الهستيرية ما يبرمجه الإعلام الأمريكي والمتأمرك من أخبار واسعة الانتشار حول حقوق الإنسان في الكويت التي 'اكتشفتها واشنطن بعد ثاني غشت الماضي. ومعلوم أن هذا الإعلام لم يعد يصدقه أحد بل لم يعد يصدق ذاته.

وإذن فالسؤال المطروح لا يمكن أن يتعلق بالنوايا العراقية وبالتشكيك فيها وإنما يتعلق بتاريخ عريق من الجرائم الأمرّيكية ضد شعوب أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا... ويتعلق الأمر بوقائع وأفعال أمريكية مهينة للشعوب، منتهكة لأبسط حقوق الإنسان ومستفزة للعقل بما تعتمده من كذب صراح. وهل من كذبة أعظم من كذبة بوش التي يقول فيها : «إن هدفنا ليس حل بنية العراق أو تدمير ثقافته وشعبه بل إن هدفنا يبقى دائما تحرير الكويت ولا تكتسي الحرب التي يقودها التحالف الدولي أي طابع انتقامي» (...).

وما ينبغي أن يفهمه مصدر الورقة اللقيطة التي تناولناها أن الدرجة المتقدمة من الوعي بنفاق وديماغوجية وعدوانية الأمبريالية الأمريكية لم تعد مقصورة على القوى الوطنية والديمقراطية بل تعم اليوم مختلف الأوساط والشرائح والفئات الشعبية في المغرب والوطن العربي والعالم الإسلامي وتتسع بين مختلف شعوب الجنوب ولن يتأخر انتقال ذلك إلى عقر الديار الأمريكية والأوروبية.

لقد أحيت هذه الحرب القذرة في العالم العربي الوعي بالأمبريالية الأمريكية وأحيت فيه المشاعر المعادية لأمريكا ومقتها بعدما سقطت ورقة التوت كما قال الإعلام المغربي وبان أن أمريكا لا ترضى للشعوب إلا بالحكام التابعين لها لا بمن يدافعون عن حقوق شعوبهم ويمنعونها من امتصاص دمهم وأنها لذلك دخلت تلك الدخلة الهمجية إلى الخليج وليس للدفاع عن المشروعية أو لأن صدام دكتاتور إذ لو كان ذلك هو السبب فلماذا تدافع عن أمراء الخليج ؟ وأكثر من ذلك لماذا تتحالف مع الأسد ؟

عندما تقول الصحافة المغربية إن ورقة التوت قد سقطت تعني أن ما كان خافيا تعرى، أن أمريكا التي كان يطمع في تحكيمها بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل هي المسؤولة عن الجرائم المرتكبة ضد الشعب الفلسطيني وأن الرصاص الذي يقتل الأطفال الفلسطينيين في الضفة والقطاع هو القنابل التي قتلت أطفال العراق وأن الإرادة الشيطانية التي تجوع الأطفال الفلسطينيين هي الإرادة التي جوعت أطفال العراق وأن الديناميت التي تنسف بيوت الفلسطينيين هي القنابل التي سقطت على بيوت المدنيين في العراق. هل هذه هي القوة يا أمريكا ؟ وهل هذا هو النصر ؟ ضرب أهداف اقتصادية وعلمية وأحياء سكنية وأطفال ونساء وشيوخ نائمين بالقنابل بالضغط على زر من ارتفاع عشرات الكيلومترات ؟ يالها من قوة ؟!

قال مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في بغداد : «إنه لا يمكن معرفة عدد ضحايا ملجأ العامرية لأن الصاروخين ولجا في المخبأ وتفجرا فيه وأنه احتوى انفجاره فأصبح من كانوا يحتمون فيه من أطفال ونساء ومسنين أشلاء» فبسطت يدي وقلت : «اللهم هدم الأمريكيين بقدرتك يا قوي يا عزيز !» فقالت بنت أختي وعمرها ثمان سنوات : «أصدقاءك ؟». قلت : «لا ! لا ! أصدقائي لا ! ولكن



- قلنا إذن...
- إعادة بناء عمارة أنيقة تطل على الخليج!...

عن جون أفريك .

الجماعة. الأفراد يوجد الخير فيهم، لكن الجماعة... الجماعة الأمريكية والعياذ بالله خطر على الإنسانية». وفي تلك الأيام كتبت لي إحدى صديقاتي الأمريكيات وهي أستاذة جامعية تقول : «إن الوضع في الشرق الأوسط من المأساوية والفظاعة بحيث أنني أجد من الصعب مجرد قراءة الجرائد. كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟ إن موقف وتصرفات الرئيس بوش يجعلاني أخجل من بلادي وليس بيدنا الآن إلا أن نسأل الله أن ينتهي ذلك بسرعة».

لقد أرادت الولايات المتحدة إظهار صدام حسين في مظهر الخارج عن القانون فبدت هي للعالم العربي والإسلامي والثالث في صورة الوحش الكاسر تساندها طغمة الأنظمة الغربية ذات التاريخ الاستعماري الحالك والأنظمة التابعة لها والعميلة وأظهرت جيشها في مظهر الجيش المرتزق بعدما جعلته يخوض هذه الحرب بثمن وبدت في مظهر المحتال الشره الذي يهدم بهدف الحصول على أجر إعادة البناء كما يفعل شارلي شابلن في فيلم الطفل عندما يرسل الطفل ليكسر زجاج النوافذ ثم يمر ولوحه على ظهره وهو ينادي : «مصلح زجاج !».

يوم الصيام في المغرب مساندة للعراق صامت بنت أختي الأخرى وعمرها سبع سنوات ودار بيني وبينها هذا الحوار :

ــ بماذا دعوت الله عندما أفطرت ؟

ــ قلت : «اللهم اهزم جورج بوش وعصابته !».

ــ عصابته ؟ تعرفين هذه الكلمة ؟

ــ إنها جماعة مجرمين.

ــ كيف عرفت أنهم عصابة (والتلفزيون يقول حلفاء على مدار الأيام) ؟

ــ أعرف.

وبعد الصيام العام في المغرب طلب بوش من مواطنيه أن يصلوا من أجل الجيش الأمريكي فاستغربت وتساءلت عما عساهم يطلبونه من ربهم في صلاتهم تلك. هل يقولون : «رب انصر العساكر الأمريكيين الذين يقودون هذه الحرب ليحولوا إمارات الخليج إلى مستعمرات بترولية أمريكية وينهبوا خيرات العرب» ؟ أو يقولون : «رب انصر العساكر الأمريكيين الذين يقودون هذه الحرب لضرب القوة العسكرية العربية بالمال العربي»؟ أو يقولون : «رب انصر العساكر الأمريكيين

الذين يقودون هذه الحرب لتدمير تنمية العراق بكافة أشكالها والقضاء على تقدمه العلمي والاقتصادي» ؟ أو يقولون : «رب انصر العساكر الأمريكيين الذين يحمون النازية الإسرائيلية التي حولت الشعب الفلسطيني منذ 42 سنة إلى شعب مشرد ومكلوم ومارست عليه أبشع الجرائم» ؟ وذكرني ذلك بمسيحيي الكوك لوكس كلان الذين يغتالون السود ثم يذهبون إلى الكنيسة للصلاة وبمكتري امتنع عن أداء كرائه مدة ستة أشهر وعندما رفع عليه صاحب البيت دعوى جاءه يقول : «بوسعي أنا الآخر أن أوكل عليك محاميا يريك وجهك في المرآة» فقال له : «وماذا عساه يقول للقاضي ؟ هل يقول : ـــ سيدي القاضي إن موكلي هذا سكن بيت الرجل ورفض أن يدفع كراءه ؟ ـــ فبهت المكتري البليد واندحر بعدما عرف أنه يخوض قضية خاسرة لأنها جائرة فكيف يتوجه بها إلى القاضي ؟

من الأساطير التي كشفت عنها هذه الحرب أسطورة حرص أمريكا على أبنائها وكون بوش تعهد بألا يكون هناك ضحايا في صفوف الجيش الأمريكي (ولا غرو إن مات العراقيون وضربت ملاجىء النساء والأطفال والشيوخ). تبين لي أن أمريكا تنافق عندما تتظاهر بالحرص الزائد على أبنائها بوصفهم أكثر قيمة من أبناء الآخرين والحقيقة أن ما يهمها هو مصالحها الأمبريالية وهيمنتها على ثروات بلاد العالم الثالث وإلا لما زجت بهم في حرب فيتنام ولما أرسلت بهم إلى الخليج أساسا.

لماذا تفجر العرب بالغضب لقنبلة بغداد والبصرة ؟ لأنهما رمز الثقافة العربية. «بغداد الرشيد وبصرة الفقه والشعر» كما قال الملك حسين. بغداد ألف ليلة وليلة وإسحاق الموصلي وزرياب وأبي الفرج الأصفهاني. بغداد المتنبي والحلاج والغزالي وعبد القادر الكيلاني وابن حنبل والشافعي والكندي والرازي وبصرة الجاحظ وأبي نواس ورابعة العدوية وإخوان الصفا وابن الهيثم والخليل بن أحمد الفراهدي وسيبويه والحسن البصري...

إن هدم بغداد والبصرة في الوجدان العربي بمثابة هدم روما وفلورانسا في وجدان الإغريقي الروماني وقد ترك في النفس العربية جرحا عميقا وحزازة على الكاوبوي المتوحش، القادم من براري أمريكا الشمالية بدون ذاكرة تاريخية ولا معرفة برموز الشعوب العريقة التي قد يكون جاء عن غير وعي ليقتص منها بوسائل «حضارته» المبنية على الإبادة والدمار.

وسيبقى تدمير بغداد والبصرة محفورا في الذاكرة العربية وستدفع أمريكا ثمنه بمقدار ما زرعته في نفوس الجيل العربي الجديد من عداء لها ومن كراهية. مازلت أفكر في ذلك وفي كون بلدان عربية تلقت ثمن سكوتها عن الجريمة وأقول : «هل من حق أي بلد نامي أن يأخذ براميل نفط أو مليارات من الدولار مقابل السكوت عن هدم تنمية بلد نامي آخر ؟ ألا يعرف ما تعنيه التنمية على مدى الخطط الشاقة ؟

مازلت أكرر التساؤل من باب الذهول : «كيف تعلن أمريكا حربا على بلد نامي بهدف القضاء على اقتصاده وتخريب تقدمه العلمي والصناعي والتكنولوجي ؟ كيف ؟ ألم يكن الأمريكيون يقولون إنهم يساندون إسرائيل لأنها الدولة التي حملت التقدم والتكنولوجيا إلى المنطقة ؟ فكيف يحاربون رجلا بكل هذه الشراسة بحجة أنه يحمل التقدم والتكنولوجيا لبلاده ؟

كان الأولى بأمريكا أن تقنبل في عقر ديارها كارتيل المخدرات وتعلن الحرب على الآيدز ومعضلة من لا مأوى لهم وعلى الفقر عوض أن تقنبل بغداد والبصرة. هل كان خبراء أمريكا ومستشارو بيتها الأبيض ومصالح مخابراتها يجهلون مكانة بغداد والبصرة في النفس العربية كما جهلوا حقيقة سكوداتها ومطاراتها المجهزة بطائرات البلاستيك والتي قنبلوها بهيستيريا تحولوا بها إلى أضحوكة تندر بها الناس وسخروا من التكنولوجيا المتطورة التي تعرف أرقام السيارات في شوارع بغداد ولا تعرف طائرات البلاستيك ؟

إن خطأ حسابات خبراء أمريكا هو الذي ورطها في الماضي ويورطها اليوم. لقد دفعت ومازالت تدفع ثمن غلطتها في فيتنام التي تصورت أنها تعلمت من أخطائها فقامت تجرب نفسها في العراق لتثبت أنها قادرة على الانتصار وتدارك الهزيمة. ألم يقل بوش : «لم يكن الخطأ أننا ذهبنا إلى فيتنام ولكن الخطأ أننا ذهبنا إليها ولم ننتصر» ؟ وفي خطاب فاتح مارس ألم يقل : «ياالله، لقد دفنا معضلة فيتنام إلى الأبد» ؟

أمريكا لم تفهم لماذا فشل فهد وهو «خادم الحرمين» والجالس على عرش بلاد هي فاتيكان المسلمين في استمالة قلوب المسلمين ولا لماذا دقت قلوب الشعوب العربية باسم صدام حسين (وهو الذي احتل الكويت) في المغرب والجزائر وتونس

والأردن وفلسطين واليمن وباكستان وأندونيسيا والاتحاد السفياتي وفرنسا. لم تفهم أمريكا ذلك.

خلال ستة أسابيع نامت الأمة الإسلامية والعربية واستيقظت وقلبها ينبض على إيقاع العراق ولسانها يلهج بالدعاء للحي القيوم أن يجعل نيران أمريكا عليه بردا وسلاما. ذلك أن الشعب العربي والإسلامي يعرف بالتجربة أن أمريكا لا تدافع عن الحق وأنها تدافع في الخليج عن إماراتها لأنها حارستها على البترول والمال العربيين الذين يذهبان إلى أبناكها ويصبان في تحريك مصانعها عوض أن يبقيا في المنطقة ويصبا في تحريك صناعتها وإغناء فقرائها عن طلب العمل الحقير في أوروبا. لذلك لم يحرك ما وقع للكويت الشعوب العربية ولكون الكويت ليست سوى نتيجة للتقسيمات الاستعمارية التي أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية ولأنها وضعت بالقصد لإضعاف العراق وعزله عن البحر.

الشعوب العربية لم تحفل بما وقع للكويت لأنها تعتقد أنه بلد اصطنعه الغرب في 1960، ليست له جذور وليست له مواصفات البلد وأهمها السكان. كيف يكون بلدا طبيعيا من عدد سكانه 000 60 نسمة أي ما لا يشكل سكان قرية في بلد طبيعي ؟ من سواد سكانه مستورد من باكستان والفيليبين والهند ومصر والأردن وفلسطين...؟ وقد رأينا بأعيننا عندما دخل الجيش العراقي إلى الكويت كيف أن الخارجين منه كانوا من كل الجنسيات إلا من الكويت وكيف كنا نقول في ذهول : «هل هذا هو شعب الكويت ؟».

قالت أختي وهي محامية : «لا يدخل في رأسي أن يكون المرء كويتيا والقاضي الذي يحكم عليه أجنبي» فقلت : «القاضي والجندي والصحافي والطبيب والممرض والمعلم والأستاذ... الكويت كما قال صحافي إنجليزي ما هي إلا شركة يملكها آل الصباح».

في 1975 عندما استرجع المغرب الصحراء الغربية قال جلالة الملك الحسن الثاني إن من الأسباب البديهية التي لا يعقل معها تشكيل دولة مستقلة في الصحراء عدد سكانها الذي لا يتعدى 000 70 نسمة. ورد عليه صحافي فرنسي بكون إمارات الخليج بها سكان أقل ومع ذلك فهي تشكل دولا فقال ما معناه أن استجلاب السكان من الخارج أمر غير مأمون وغير طبيعي.

وأخيرا خفقت قلوب الشعوب العربية والإسلامية على إيقاع العراق لأنه وكما قال ياسر عرفات لم يكن بوسعها إلا أن تقف ضد أي تحالف يضم إسرائيل. هل كانت أمريكا تتوقع أن تقف الشعوب العربية بجانب تحالف يضم إسرائيل وفرنسا وإنجلترا وتقوده هي بسجلها المثقل بالجرائم ضد هذه الشعوب وبالتآمر على حقوقها ومصالحها ؟

وقفت وأنا من الشعب العربي بجانب العراق بفعل منطق واحد، إذ كما كنت أقول : «هل أقف مع من يضرب إسرائيل والجيش الأمريكي ويعاقبهما لأول مرة منذ 42 سنة على جرائمهما ضد الشعب الفلسطيني أو أقف مع من يحارب في صفوف أمريكا وإسرائيل ويجعل أراضينا المقدسة مضارب لمعسكرات المشركين وموطئا لأحذيتهم ومرمى لزجاجات جعتهم ومن يأتي بنساء أمريكا للدفاع عنه قالبا بيت عمر بن أبي ربيعة كما ورد في إحدى الجرائد المغربية :

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

لا أنسى المحنة التي مررت منها عندما أردت الحج في 1977 لأنه لم يكن معي محرم. كنت أستطيع أن أقيم في معسكر وأسهم في برامج إذاعة طرفاية الموجهة إلى الصحراء الغربية التي كانت قبل 1975 ماتزال تحت السيطرة الإسبانية وأعود ليلا إلى المكان الذي أنام فيه داخل المعسكر ولم يكن بإمكاني أن أحج بدون محرم يحرسني رغم أنني كنت برفقة والدتي. «ضرورة تحتمها طبيعة تلك الديار ؟» إذا كان الأمر كذلك لماذا لم يطلب من النساء الأمريكيات استصحاب المحارم ؟ وهل كان من الضروري استقدام نساء للدفاع عن رجال السعودية هم الذين يعتبرون المرأة حرمة ويغلفونها في الأحجبة ويلبسونها الملحفة والخمار والنقاب والجوارب والقفاز ؟ ألم يكن بإمكان أمريكا أن تتوانى عن إحضار نسائها للدفاع عن السعوديين أم أنه إمعان في الإذلال ؟ هكذا إذن السعوديون لا يمارسون عجرفتهم إلا علينا. حسبي الله ! قال لي أحدهم : «في المرة القادمة استصحبي أمريكيا حتى إذا قالوا لك : «أين المحرم ؟» قولي : «ها هو !» قلت : «لا رغبة لي في ذلك الآن، لقد دنسوا تلك البقاع».

الرباط في 14 مارس 1991

أزهار الدفلى

منجزات طعمها كطعم مياه منيسوتا الحمضية أو هي كشجرة الدفلى كما يقول المثل المغربي أزهارها جميلة وعروقها مرة.

«إنها جامعة مخضرة وهادئة».

قلت ذلك لمدير المعهد العالمي للصحافة في مكتبه أول يوم لي في جامعة مكاليستر وقال :

«إنها من أحسن الجامعات المتخصصة في الآداب والفنون».

أراد أن يزود الإعجاب الذي استبانه عندي ونجح في ذلك.

كنا في صباح اليوم التاسع من مايو 1982 وكنت قد استيقظت في الدار التي تأوي مقر المعهد داخل حرم جامعة مكاليستر في مدينة سانت بول بولاية مينيسوتا.

وجدت عندي انطباع من يستيقظ في غير مكانه وكان مشبعا بالهدوء وبمنظر البيوت الفخمة والأشجار الضخمة ووثبات السناجب في الحدائق الخصوصية وعلى الطريق العام. وأعادت هذه المناظر ذكرى مناظر الليلة السابقة على ضوء المصابيح وأنا أعبر ضواحي سانت بول في الطريق من المطار. لقد دخلت الولايات المتحدة، لحسن الحظ، من مينيسوتا في فصل الربيع، مينيسوتا، أرض البحيرات والغابات والخضراوات بعدما تركت المغرب يعاني وطأة عام ثان من الجفاف. كنت والتغيير لم يستقر في وعي كمن يعيش خارج حدود الواقع.

وتجولت في الجامعة، مرجاتها تزينها أشجار تفاح لم تتفتق براعمها بعد وبناياتها ذات اللبنات الحمراء أعادتني اثنتي عشرة سنة إلى الخلف، إلى الجامعات البريطانية المبنية على الطراز الفكتوري، لكنني لم أذكر ذلك لأحد، لحسن الحظ. وبعد أشهر وجدت في منتزه نيويورك المركزي والبنايات التي تحفه على الجانبين صورة طبق الأصل لهايد بارك وبنايات بايسووتر اللندية. إن هناك تقليدا أعمى لكل ما هو إنجليزي لكن أحدا لا يشير إليه لا من قريب ولا من بعيد.

أتكلم عن الهدوء والخضرة وكأنني آتية للإستجمام. كنت قد وضعت عشرية كاملة من العمل الصحفي الإداري المشترك في الخلف. لديَّ سبعة أشهر، سأدرس فيها الشؤون الأمريكية وأسافر عبر ثلاثين ولاية مع عشرة صحفيين من الشمال والجنوب.

وتعرفت على باقي الزملاء، كان هناك ثلاث نساء وستة رجال من كلومبيا وأستراليا وإرلندة وتونس وساحل العاج وإسبانيا وفرنسا وفنزويلا وسنغفورة. مجموعة في نحو الثلاثينات ستقتسم ملحمة تؤدي تكاليفها الباهضة مؤسسات أمريكية.

عشرة نساء ورجال يفرق بينهم كل شيء ولا تجمعهم إلا المهنة والرغبة في الذهاب، ذهاب يوشك أن يكون يوميا في مدى، حدوده البحر من الشرق إلى الغرب، وحتى هذا الذي يجمعهم يفرقهم في النهاية عندما تصبح المهنة موضع سبق ومنافسة.

رميت بحياتي المهنية إلى الوراء ولم أتصفح الماضي بغضب كما يقول جون أو زبون أحد كتاب مسرح الغاضبين في بريطانيا. كان أمامي عالم أريد أن أكتشفه ولأن ذلك كان همي لم تكن لدي حالة نفسية مسبقة أو تخوف من مطبات عدم التفاهم مع الوافدين، ومعاشرة الناس إما أن تثريك وإما أن تفقرك.

الربيع في بدايته والشتاء يتوعد، في إصلاح السطوح والطرق وفي التريض والأكل في الهواء الطلق بهوس من يريد الانتقام.

لم أر من شتاء مينيسوتا إلا بدايته لكنني أدركت هوله من كثرة ما سمعت : «لمنيسوتا فصلان، الشتاء وإصلاح الطرق». «التدفئة تكلفني مئتين وخمسين دولارا في الشهر». «لكثرة ما نلبس نبدو كالدببة». «عندما استقر الشتاء كان البرد أبرد مما عهد أغلبنا وكان الثلج غبارا والهواء جافا».

من أمطار الصيف أستطيع أيضا أن أتصور هول الشتاء. وصيف مينيسوتا شبه صحراوي لا تتوقف معه المكيفات ويتميز بالبعوض والسيول الجارفة.

تمشيت مرة في الشوارع الفرعية. كانت البيوت تتظلل بأشجارها العظيمة في حدائقها المفتوحة. مشيت وأنا أعقد المقارنة مع حدائقنا التي تخفيها الأسوار والسياجات المورقة وتكمن أحيانا في صحون البيوت. أجدادنا كانوا يتنزهون في بساتين خصوصية والذين لم تكن لهم بساتين كانوا يدقون الأغطية في الخلوات ليكونوا في عزلة. الأمريكيون على العكس يقيمون الولائم في حدائقهم المفتوحة وفي المساحات الخضراء فيأكلون في الحقيقة على قارعة الطريق.

أوغلت في المشي حتى ابتعدت والمسافات الأمريكية قياسية، من البيت إلى المدرسة، إلى العمل، إلى السوق الممتاز، إلى محطة البنزين، مسيرات خضراء. باستثناء النيويوركيين لا يستطيع الأمريكي التنفس إلا في المجال الرحب سواء في السيارة أو الحديقة أو الشارع على عكس الإنجليزي. ومن نزعته تلك تولدت حاجته التاريخية لضم المزيد من الأرض في حركة نحو الغرب لم يحدها إلا البحر وحتى بعد ذلك وجد متنفسا في فيتنام وغزو الفضاء. لذلك لا تراه يشعر بالذنب من مساندة إسرائيل في سياستها التوسعية.

سرقتني جولتي في غروب ذلك المساء الحار عندما زفر الجو بغتة وتفجرت سدود السماء. كان المطر ينزل كطلقات مدفع رشاش. وقتها فهمت كم هي نسبية أمثال الشعوب وبنت بيئتها. صورة المطر الشديد عندنا في المغرب أنه خيط من سماء وعند الفرنسيين أن السماء تمطر دلاء أما عند الأمريكيين فهي أنها تمطر قططا وكلابا. كان من ذلك النوع الذي قال عنه الكاتب الفرنسي رومان كاري : «سيلا مغاليا كأغلب الظواهر الطبيعية في أمريكا عندما تركب رأسها» تلك

الظواهر التي قالت عنها امرأة كهلة في إحدى جلسات الذكر بالرباط : «لقد طردنا الشيطان، بعثنا به إلى أمريكا أرض الصواعق».

كانت الشوارع خالية وسيارات الأجرة تطلب بالتلفون فلم أجد بدا من طرق أول باب. وبما عهد في سكان مينيسوتا من دماثة قادتني صاحبته إلى الحمام وأعطتني منشفة وطلبت لي سيارة أجرة.

سانت بول ومينيا بوليس مدينتان متجاورتان يفصل بينهما المسيسبي، تلقبان بالمدينتين التوأمتين لكنهما في الحقيقة بمثابة الأختين للأب تطبع علاقاتهما معتقدات قائمة على نظرة كل منهما للأخرى نظرة استصغار مثل ما هو الشأن بين سكان الرباط وسلا الأصليين.

سانت بول عاصمة الولاية أصغر حجما ولكنها أقدم تاريخا، تميزها بيوت ضواحيها الفخمة على جانبي شوارع طويلة، فسيحة ونضرة. أما مينيا بوليس فهي أولا وقبل كل شيء مدينة البنايات الحديثة وناطحات السحاب والبحيرات التي يقصدها الناس في عطلة نهاية الأسبوع للمشي وركوب العجلات والمزلج وتناول طعامهم في الهواء الطلق في مهرجانات يختلطون فيها ببط البحيرات، تلك الأمة المتكاثرة التي تسبب للأسف مشكلة. إنها تلوث العشب على جوانب البحيرة إلى حد منفر.

ورغم أن ربيع مينيسوتا خيب ظني بانعدام الورد ورغم أن هناك ولايات أخرى تنافسها في الخضرة وجمال البيئة إلا أنني اخترت أن يكون لها عندي مكان خاص. إنها أول ولاية نزلت بها وألقيت المرساة وعرفت بشاشة الناس. إننا من خلال الناس نربط علاقتنا بالأرض فنحبها أو نكرهها وتصبح الأرض هي الشخص، ظاهرة غير منطقية ولكنها واقعية.

كان لي في مينيسوتا ثلاث عائلات مضيفة من بينها صديقتان، إحداهما تعمل بإدارة الجامعة والثانية في وكالة أسفار. وكانت التي تعمل في الجامعة تنتظر صدور الحكم في طلاقها من زوجها الذي لها منه طفل في الثانية من عمره. وعندما جاءني خبر وفاة والدي قبل نهاية البرنامج بشهر ورجعت إلى

المغرب مرورا بسانت بول أبت إلا أن تودعني بعشاء حزين. جاءت إلى المطعم بطفلها ليلا في صقيع نوفمبر وأولى ثلوج الشتاء. ووجدت على وجهها ذلك الحزن الذي أعانيه. وعندما استأذنت مدة قالت صديقتها : «إن الحكم بطلاقها سيصدر غدا». رغم ذلك ورغم ما كانت تكابده أبت إلا أن تودعني بعشاء أليم. هذه واحدة ممن أحببت مينيسوتا من خلالهم. وهناك أخرى، كانت هي وزوجها عائلتي المزارعة المضيفة. كانت الزوجة في السادسة والسبعين والزوج في الرابعة والسبعين ولم يكن لهما أولاد. كدحا كباقي الأمريكيين كدحا نحو الشيخوخة واستغرق ذلك سبعة وأربعين عاما. وعندما أصبحا يملكان الأرض والبنايات القائمة عليها والآلات لم يعودا قادرين على العمل فباعا البقر والدجاج والآلات وأجرا الأرض وبدءا يصرفان وقتهما، هي في الطبخ والرسم على الخزف وهو في العمل بالحديقة وغسل الأواني. دوريا يترددان على مصحة مايو المشهورة للفحص أو العلاج ومرة في السنة يستضيفان لمدة عطلة نهاية الأسبوع صحافيا من أرض بعيدة يضاف إلى اللائحة التي أكملت بي رقمها العشرين. إن استضافة صحافي أجنبي حدث تنشره الجريدة الجهوية وتخلده الأسرة المزارعة كل بطريقتها. مضيفتي مثلا أعدت فطورا قضت ليلتها في إعداده ودعت إحدى عشرة امرأة من المزارع المحيطة على بعد مائة كيلومتر.

وتركت هذه الأسرة وفي جعبة الزوجة الفنانة مخططات لإعادة الزينة الخارجية للبيت الصغير في حديقتها الخلفية الذي تخزن فيه أدوات البستنة، وعشب المرجة الواسعة مقصوص وحديقة الخضراوات مخضرة وتربة الأحواض مقلوبة وثلاجات القبو معبأة بالمعلبات والخضر المحفوظة. تركتهما عند البوابة وقلبي مطمئن وكلبهما العجوز باسط ذراعيه يرقبنا من مربطه في انتظار أن أذهب ليطلق سراحه.

ورجعت إلى المغرب وواصلنا الاتصال بالمراسلة رغم معاداة الأمريكيين للمراسلة. كانت تتكلم عن زياراتها للمصحة وما قاله الطبيب وما قالته سكرتيرته وما تحتاجه من حنكة لحمل زوجها على السفر إلى المصحة.

وبعد سبعة أشهر رجعت إلى منيسوتا مع أختي الصغرى التي كان عليها إجراء فحوص في مصحتها. وتوجهنا إلى أول مواعدنا فوجدناها هي وزوجها على مقعد يرصدان منه المصاعد. كنت قد أخبرتها بيوم وصولنا فحددته موعدا مع طبيبها وعرفت من كمبيوتر المصحة مكان موعدنا فسبقتنا إليه. ودعتنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعتها وانصرفت مع زوجها في سيارتهما على مهل.

كانت صحتهما ومعنوياتهما متدهورة وكان الزوج يضع ياقة طبية على رقبته. وعندما زرناهما عرفنا ما وقع. لقد سافرت في الشتاء الماضي إلى منيابوليس وفتح الريح باب المطبخ الخارجي فقام ليغلقه ولكنه غلبه وأسقطه في سلم القبو وأغمي عليه وأصيبت رقبته.

كانت الحادثة حدا فاصلا قلب المخططات. ولأول مرة بدءا ينظران إلى المستقبل بقلق. قالت : «إننا لا نريد أن يبقى أحدنا هنا، وحده، إذا ما قدر للآخر أن يرحل». أقنعتهما الحادثة أن المزرعة لم تعد تصلح لهما ولولا ذلك لما أخرجهما منها إلا الموت.

وضعت تصيما على المائدة وقالت بضيق من يتكلم عن شيء يكرهه : «لقد بعنا جزءا من الأرض ودفعناه لشركة ستبني في ألبرت لي شققا للمتقاعدين ضمن مشروع يحتوي على دار للعجزة وغرفة تمريض ومطعم وقاعة جماعية يلتقي فيها السكان. وتصل بين هذه المرافق ممرات بحيث يمكن في أيام الثلج التنقل في البناية دون حاجة للخروج إلى العراء. سيمكننا طلب الطعام بالتلفون عند الحاجة أو طلب ممرضة...».

كانت تريد أن تشوقني بما عهد فيها من إتقان لفن الحديث لكنه كان يخرج من فمها كالحكي في جنازة عما قاله الميت وما فعله قبل أن يسلم الروح. كانت تتكلم بصعوبة ولكن بشجاعة ويكتفي زوجها بالإستماع وهو يطأطئ رأسه وينظر إلى المائدة بإمعان وإذا تكلم غلبته الدموع فيقول : «إنها سبعة وأربعون عاما» ويعود للصمت وتقول هي : «إننا نحاول حمل ابن أخي على شراء البنايات، سيصلح له الاصطبل ورشة إنه نجار صنع لنا من شجرة أسقطها الريح قطعة أثاث،

بذلك سيكون لنا في المسكن الجديد شيء من المزرعة. ويقول هو كأنه يحدث نفسه : «إن فعل اشترطت عليه أن أزور البيت مرة في الأسبوع». يشغل باله أنه سيتوقف عن العمل في الحديقة وأن الشقة الجديدة مجهزة بآلة لغسل الأواني. ويشغلها هي أنها بفقدان صفة مزارعة تفقد صلاحية استضافة الصحافيين الأجانب.

قالت : «تذكرين صديقتي صاحبة مزرعة الخيل ؟».

لم أكن لأنساها، لقد أخذتني لزيارة أملاكها في العام الماضي. «...لقد اشترت هي الأخرى شقة مجاورة لنا. بذلك سيتمكن زوجها الذي سيعيش في دار العجزة من زيارتها وقتما يشاء».

وبينما كانت تتكلم استرجعت صورا من أملاك هذه الصديقة وأدهشني ما احتفظت به من وضوح. لم تكن أملاكا. كانت مملكة. عاد بقوة منظر بيت فخم تقوم عليه أشجار جليلة. بيت صغير فوق ربوة. فرس أدهم داخل حاجز خشبي تحت الربوة في ذهاب وإياب، جلده الفاحم يلمع في ضوء النهار. أول وآخر أحواض ورد رأيتها في الولاية، منثور حولها ورق ما زال يحتفظ بعطره. واستنشقت بعمق نفحة وهمية من العطر ذاته كأنها حقيقية. كانت صديقتها تربي خيولا عربية وعندما أصيب زوجها بالشلل بنت له فوق الربوة وعلى مرتع الخيل ذلك البيت الصغير بحيث لا يغيب عنه منظر خيله.

وانتهت زيارتي الثانية لهذه الأسرة. وعندما تركتها هذه المرة لم أكن مطمئنة. ورأيت الكلب العجوز في مربطه. كان الزوج قد قال عنه : «سأحمله إلى البيطري ليحقنه لا أستطيع أن أتركه لمن أعلم أنه سيسيء معاملته». وتلقى دموعه بأنامله.

ورجعت إلى المغرب وكتبت لهما فلم يأت الجواب فكتبت للمعهد أسأل عن أخبارهما. وبعد ثمانية أشهر جاءتني رسالة تحمل طابع ألبرت لي، كتبتها بخط مهزوز وهي في المصحة. لقد بيعت المزرعة. اشتراها زوجان شابان، وبيعت ثلاجات القبو وآليات الحديقة والآلات المنزلية في المزاد. الرحيل كان شاقا في ثلوج مينيسوتا. لم تتكلم عن الكلب، ماذا صنعا به في نهاية الأمر ؟ ولا عن

الزوج. ماذا يفعل الآن ولا حديقة هناك والآلة تغسل الأواني ؟ شيء آخر، الزوجان وجدا في المزرعة ما كانا يحلمان به. سيكدحان نحو الشيخوخة لتسديد الديون. ترى كم يستغرق كدحهما مع ارتفاع الأسعار وفوائد الأبناك ؟.

قساوة الشتاء حملت المعهد على تغيير مواعيد البرنامج، نبدأ في مايو وننتهي في دجنبر، بعد ثلاثة أشهر من المحاضرات ننطلق من منيسوتا عبر الولايات بحيث لا يلحق بنا الشتاء. لقد رأيت الولايات المتحدة، لحسن الحظ ومنتزهاتها الطبيعية الوطنية بالألوان وخلال أطول ربيع ممكن.

ولنبدأ من البداية، منطقة القوارب في شمال مينيسوتا، قضينا بها أسبوعا في بداية البرنامج للإستجمام والتعارف. منطقة تقع داخل غابة من أشجار يغطى جذوعها النحيلة لحاء فضي لامع وتتخللها أنهار وبحيرات من البركة إلى البحيرة العظمى التي تدخل في سلسلة البحيرات الكبرى التي تبدو بحارا من الماء الفرات وتفصل بين الولايات المتحدة وكندا في منظر باهر يشهد بما ورثته مينيسوتا من ثروة مائية عن عهدها الجليدي، لذلك كان ربيعها ساحرا لولا البعوض وبحيراتها بعدد نجوم السماء. يقولون إنها عشرة آلاف، وهذا الرقم هو رمز الولاية الذي تحمله صفائح سيارتها المعدنية. هل هي عشرة آلاف فعلا ؟. أحيانا توصل بينها شبكة من الجداول تصبح شلالا كلما التقت بجرف عال. وبهذا التوليف العجيب بين الغابة والبحيرة أودع الخالق جمال الطبيعة الخام على شاطيء البحيرة العظمى فيما يعرف بمنطقة القوارب، المحرمة على نفايات البلاستيك والصفيح وعلى المحركات والمنبهات. حجزت للمجدفين فلم تخط بداخلها طريق معبدة. ترابها محظور على السيارات وأجواؤها على الطائرات، واحدة من روائع الطبيعة الأمريكية الساحرة.

سكنا مجموعة بيوت ريفية على جنب البحيرة، مبنية من عوارض خشبية، أسطوانية من ذلك النوع الذي يذكر بمساكن الرواد الأوائل. ولأنها من خشب استنتجت أن الدافع إليها وفرة الخشب وانخفاض التكاليف وأنها قابلة للاحتراق وغير صلبة، إلا أن صاحبتها أكدت لي أنها في صلابة البيوت التقليدية، تعيش قرنا وربما أكثر، تكلف ما تكلفه البيوت التقليدية وأن النار تنتشر فيها ببطء لمتانة

عوارضها، وأنها تتميز بقلة أعمال الإصلاح وفعالية طاقية، فهي دافئة في الشتاء وباردة في الصيف.

من النافذة كنت أراقب عصفورا يأتي ليشرب من البحيرة، سواد ريشه يتزاوج مع صفرة منقاره في انسجام يزيد اللونين جمالا وأعجب لهذه الكائنات الضئيلة التي تعرف كيف تختار بيئتها. كان منظره مسرة والبحيرة الممتدة وسط الأشجار مبعث سكينة عجيبة. ما أقوى الإنشراح الذي يأتي به الماء !. الصمت شامل تبرزه رفة أجنحة أو زقزقة عصفور حتى خيل لي أن حجرا لو ألقى في نهاية البحيرة لسمعت وقعه.

غابة يسكنها الأيل ويأتيها المخيمون للصيد والتجديف أو للهدوء.

مينيسوتا أيضا هي مسقط رأس المسيسيبي. فيها يولد من البحيرات ومنها يبدأ رحلته الطويلة نحو خليج المكسيك. إن أردت أجمل وجوهه تتبعه هنا أو عبر قلب أمريكا الزراعي، وسكونسون وإلينوي وآيوا حيث يتخذ حدا بين هذه الولايات. هناك يصبح إحدى العجائب وتسمى ضفافه بسياجات المسيسيبي لكثرة ما يغطي هضابها من أشجار كثة في مناظر تذكر بزوارق الهنود الحمر وصراعهم ضد قوى مياه المسيسيبي وقساوة الرجل الأبيض، ذلك الصراع الذي عشناه في الطفولة وكنا، لجهلنا، نتحيز فيه للرجل الأبيض.

رأيت جمال المسيسيبي في كل من مينيسوتا وآيوا على ظهر باخرة استأجرها المعهد في نهاية الدورة الدراسية بسانت بول ويخت تملكه شركة جون دير المتخصصة في صنع الآلات الزراعية والتي تمول المعهد. وفي كلتا المناسبتين كان هناك طعام وموسيقى.

الطعام جزء من المؤسسة الأمريكية، لا يخلو منه مشهد. تجده في الإدارات والمساحات الخضراء وجنبات الطرق السيارة وملاعب البايس بول وفي كل مكان.

كنت قد لا حظت في زيارة سابقة للقاهرة أن المصريين لا يذهبون إلى السينما للفرجة وإنما لشيئين اثنين، هما البكاء والأكل فأدركت السبب وراء ضخامتهم، ثم وجدت أن المصري لا يضاهيه في الأكل إلا الأمريكي. كلاهما قادر

على استهلاك الكميات الملكية كما يسميها الأنجلو سكسونيون. لذلك راجت سوق الطعام في أمريكا. والأمريكيون يحبون الحلويات وتعد من الأطباق الوطنية تورتة مربى العنيب التي تفرغ فيه علبة من الحجم الكبير، والآيس كريم الذي يباع في الأسواق الممتازة في دلاء من البلاستيك ويأكل مخلوطا بالبندق والفستق، وسلاطة البطاطس بالمايونيز والبطاطس المشوية التي تأكل بالزبدة أو القشدة.

ويتساءلون من أين لنا البدانة ؟ التي يعاني منها الصغار والكبار أو لماذا لا نكف عن الأكل ؟. عندما سمعت ذلك قلت على الفور : «إنه الإغراء. إغراء العرض الذي يقدم أنواع الطعام والشراب في تلفيف بديع يحمل صور محتوياته بالألوان ويجعل السوق الممتاز متعة للناظرين». وأضفت لصاحبة التساؤل : «وإعلانات التلفزيون ؟. ألا ترينها ؟ إنها إبداعات فنية وتقنية تدور في حلقات مأكولاتها ومشروباتها المفرغة». لقد تحول الأمريكي من مواطن إلى مستهلك وأصبحت وسائل الإعلام تقدم المجتمع الجيد على أنه مجتمع المواطن فيه مستهلك جيد. قدماء الرومان هم، كانوا يأكلون وهم متمددون على الأسرة ثم يردون ما أكلوه ويرجعون للأكل. أكلما أثرت الإمبراطوريات أصيبت بالتخمة ؟.

أما الأمريكيون فلهم طريقة أخرى توصل إليها ذوو العقول النيرة وأصبحوا من ورائها أثرياء وتقوم على ابتداع أنواع الحمية والتمارين الرياضية التي يبيعونها عن طريق التلفزيون أو الفيديو أو الكتب أو القاعات الرياضية. وهكذا تسمع وترى من يقول لك في تناقض عجيب : «جسمك في حاجة للتغذية وعليك أن تغذيه»، «طريقتنا أثبتت أننا الأكثر خبرة في التخلص من البدانة». وهكذا ترسخت في الأذهان فكرة مفادها، سآكل ثم ألعب... كرة المضرب مثلا، حتى تحولت أمريكا إلى بلد في حالة فرار الكل فيه يجري وأصبحت إقامة شعائر الجسد من الأهداف القومية مثل نزول أول إنسان على سطح القمر.

ويشجع على الأكل انخفاض الأسعار بسبب ما تنتجه المزارع مما جعل كثرة القمح، وهو مورد عيش المزارع، سلاحا دخلت به بلاده لعبة الأسلحة الستراتيجية.

واستعمال القمح في السياسة بين أمريكا والإتحاد السوفياتي يذكرني بصورة في قصة إرنست همنغواي «الشيخ والبحر» تصف كيف أمسك صياد عجوز في أعالي البحر وبعد أيام بحوت ضخم اشتبك معه إلى حد لا رجعة فيه لم يعد يسمح بمعرفة من يصطاد من.

القمح وهو أهم الصادرات الأمريكية غير العسكرية لا يكفي لتسديد نصف واردات البترول. وما لا يباع منه يوجه عونا إلى الأنظمة الموالية خدمة للمصالح الأمريكية. وقد صرح جون بلوك وزير الزراعة بأن «من الأهمية أن نعترف بكون مشروعات الولايات المتحدة الزراعية والتجارية مع البلدان الأخرى ترتبط بعلاقاتها بهذه البلدان وسوف تعطى الأولوية لمن يظهر تأييدا لمرامي الولايات المتحدة وأهدافها» وقال : «إننا نبذل جهدا كبيرا لمساعدة بلدان أخرى كي تصبح أكثر قدرة على إنتاج الغذاء، ذلك يعزز اقتصادها فتصبح من أفضل زبائننا».

وقد فطنت بعض الجهات الأمريكية إلى أن العون لا يذهب إلى مستحقيه وأن بعض البلدان تستعمله لأداء أجور العمال فلا يتوصل المحتاجون إليه إلا بعشرة في المائة منه وأن الهدف منه هو صد الشيوعية وأنه ستراتيجية لخلق أسواق جديدة بتحويل الآسيويين مثلا من الأرز إلى الخبز بتقديم الخبز في وجبات المدارس المجانية وأنه يرسي التبعية الغذائية ويجعل للحكومات مسلكا من مطبات سياساتها الزراعية ويشجعها على ذلك، إذ كلما زاد الفشل زاد معه العون الأمريكي وأن القمح الذي كان يرسل إلى فيتنام كان يسلم للجيش الفيتنامي لا للمحتاجين وأن.. وأن..

والزراعة الأمريكية تعيش مشكلات من بينها أن المزارع الصغرى مهددة بالمزارع الكبرى ذات الإنتاج الضخم وأن مكونات الزراعة تهدر. الأرض إما اكتسحتها المدن وإما جرفت تربتها ومخزون المياه الباطنية في تناقص أمام حمى الإنتاج. قال بلوك «إذا كنا في الماضي نجد المزيد من الأرض كلما احتجنا إليها فيجب أن نعلم أن لكل شيء نهاية». سبحان الله ! من كان يتصور ذلك ؟. في القرن الماضي قال إلكسى دو توكفيل الفرنسي ما معناه إن الزراعة الأمريكية ثروة

لا نهاية لها. ويزيد في خطورة المشكل أن المزارع يستعمل الأسمدة الكيماوية للزيادة في المحصول عاما بعد عام فلا يترك الأرض تسترجع أنفاسها ويهدر موارد الأجيال القادمة.

المزارعون يعرفون ذلك، لكن ماذا يصنعون ؟. إن عليهم سد طلبات التصدير وارتفاع أسعار الأسمدة والوقود والآلات وفوائد الأبناك ثم إن الإنتاج الضخم يخفض أثمان المحاصيل ويجعل في إراحة الأرض خسارة فادحة، وواجبهم على كل حال هو إنتاج أكبر محصول وبيعه بأغلى ثمن في أقصر وقت. وتخفيض الإنتاج فوق كل ذلك معناه ارتفاع أسعار المواد الغذائية. وهكذا تصبح الحلول مثقلة بالمصاريف التي تقع على كاهل المنتج والمستهلك. ويقولون لما لا نكون أوبيك للقمح يضم مصدريه وهم الولايات المتحدة وكندا وفرنسا وأستراليا ونيوزلندة والأرجنتين وجنوب إفريقيا وطيلا ندا ؟. يحسبون أن القمح منتوج يتجدد على عكس البترول وينسون أنه رهين بموارد طبيعية محدودة مآلها الفناء إن هي أهدرت وأنه على عكس البترول يمكن زرعه عند الحاجة وإنهاء تبعيته.

هم هنا لا يخفون عنك شيئا. جئت لتدرس الشؤون الإمريكية ؟ طيب. سيطلعونك على كل شيء، كل شيء.. حتى إذا كتبت عن أمريكا كتبت بمعرفة. ألست في البلد الحر ؟. ولتعرف أن هناك شركات تصدر للعالم الثالث ما لا يسمح ببيعه في الداخل. وإن كنت لاتعرف عرفوك أن المواد التي تشكل خطرا على الصحة والمسكنات والبضائع المعيبة والأدوية التي لا مفعول لها أو الخطيرة والمبيدات وباختصار كل ما لم يسجل للإستعمال الداخلي يباع للعالم الثالث. ولا شك أن الإكتشافات التي أثبتت أن منتوجات تسبب السرطان ستترك بين يدي الشركات مخزونا لن يخلصها منه إلا العالم الثالث. ووكالة حماية البيئة ليست لها صلاحية منع تصدير الكيماويات السامة إلا إذا كان هناك احتمال إضرارها بالبيئة الأمريكية. وقد طالبت لجنة تمثل عدة وكالات أن يكون تصدير المواد الممنوعة في الداخل رهينا برخصة في حالة واحدة فقط وهي أن يكون في ذلك احتمال الإضرار بالمصالح الأمريكية وأن تحاط البلاد المستوردة علما بأن المادة ممنوعة

في الداخل. وطالبت نقابة عمال الصلب المتحدين بفرض رقابة مشددة على تصدير المواد الممنوعة في الداخل وأن تنذر البلاد التي يتقرر نقل صناعة خطيرة إلى داخل ترابها. لكن أصحاب المصالح اعترضوا ووصفت شركة دوبون ذلك بأنه إجراء محبط للصناعة الأمريكية ولسياسة توسيع التصدير وقالت «إن من شأن ذلك أن يدفع بالشركات المتعددة الجنسية إلى الهجرة وأن إفشاء خبر المواد المحظورة في أمريكا ظلم في حق الصناعة الأمريكية والولايات المتحدة التي سيتضرر ميزان مدفوعاتها بفقدان الصفقات وهجرة الصناعات.

وفي استجواب أجراه منشور جمعية المستهلكين قال أحد رؤساء هذه اللجنة : «إن لنا مستوى ومفهوما مختلفين. نحن الآن نتكلم في هذه البلاد عن أخطار تطهير مياه الشرب بالكلورين ونصرف الأموال لإيجاد وسائل أخرى. أما في بلاد تزحف فيها الأمراض المائية وتتعدد المشاكل الإجتماعية فإن من المعقول أن توظف هذه البلدان أموالها في أغراض أخرى وتطهر مياهها بالكلورين رغم أنه يصيب بالسرطان. إن متوسط أعمارهم هو خمسة وثلاثون سنة وأعراض السرطان بطيئة المفعول. أعني أن مستوى حياتنا يسمح لنا بالقلق من مفعول بعض الكيماويات البطيء. وفي اعتقادي أن المبيدات والأدوية وغيرها مما ليس مقبولا عندنا يمكن أن يكون مقبولا عندهم لارتفاع ثمن البديل». على أنه اعترف للتاريخ وللحقيقة أن بلاد العالم الثالث ولا سيما الصغرى منها لا تتوفر في الغالب لا على الخبرة ولا على القدرة ولا على البيوقراطية الكافية لاستبانة الأضرار وتقييمها.

وكما توقع لوبي أصحاب المصالح في الكونغريس أجلت إدارة كارتر البت في أمر المطالب التي تقدمت بها اللجنة إلى ما بعد الإنتخابات. وبعد الإنتخابات حملت اللجنة على التخفيف من مطالبها بحيث أصبح منع تصدير المواد الضارة محصورا في شرط واحد وهو احتمال إضرارها بالسياسة الخارجية الأمريكية أو الأمن القومي.

وجاء ريغن ولم يعد أحد لإثارة الموضوع. وكان كل ما قام به رئيس اللجنة الزراعية في مجلس الشيوخ هو الطعن في التقرير وتقصيره في النص على ما سيعود به إنذار البلدان من خسائر على الولايات المتحدة.

المواد الخطيرة تمنع من البيع في الداخل وتسوق إلى العالم الثالث على مرأى ومسمع من القانون والمؤسسات القومية ؟.

الديموقراطية تدعم صروحها في الداخل وفي الخارج تسند الأنظمة العسكرية الدكتاتورية التي تصفي شعوبها، ضمانا لأمن المؤسسات ونمط الحياة الأمريكية.

هانيويل تصنع القنابل العنقودية وبمدخولها تقدم المساعدات لمصحة مايو حتى تواصل رسالتها في البحث الطبي.

أية مصلحة أمريكية وأي نمط حياة يبرران كل هذا الضرر ؟. ويتساءلون لماذا يكرههم العالم الثالث ؟. تأكدت الأفكار المسبقة وتعمق الخذلان فاهتزت الصورة وأصبح كل شيء، بحار الزرع وشبكات الطرق والجسور المهيبة ودنى ديزني العجيبة وغرائب العمران وروائع الطبيعة والنظام والكفاءة والتفاني في العمل والتواضع تظهر على مرآة مشروخة. منجزات طعمها كطعم مياه مينيسوتا الحمضية أو هي كشجرة الدفلى كما يقول المثل المغربي زهرها جميل وعروقها مرة. يذكرني هذا بقول جبران خليل جبران : «كل عمل خواء إلا إذا امتزج بالحب، فإذا امتزج عملك بالحب فقد وصلت نفسك بنفسك وبالناس وبالله».

«إنها تخصص 5 ٪ من مدخولها السنوي للمشاريع الثقافية والإجتماعية». قال ذلك أحد العاملين في المعهد بعدما تبينت له المرارة التي تكلمت بها عن الشركات متعددة الجنسية والعالم الثالث وقلت له : «أين تفعل ذلك ؟ قال : «في أمريكا». قلت : «في أمريكا بطبيعة الحال».

كنت قد شاهدت استطلاعا بثته إحدى شبكات التلفزيون وجدته من نوع اللا معقول ظهر فيه إفريقي خارجا من صيدلية بدواء للأطفال من صنع أمريكي يسبب الشلل وعمال من أحد بلدان أمريكا اللاتينية يرشون كميات هائلة من مبيد

مصنوع في أمريكا على مزارع الموز ويصابون بالتسمم فينقلون إلى المستشفى حيث يلقي بعضهم حتفه. وتصعيدا لشعور اللامعقول قدم الاستطلاع مشهدا من ميناء نيويورك حيث ردت حمولة قهوة قادمة من الأرغواي وجدت فيها المصالح الطبية أثرا للمبيدات التي باعتها الولايات المتحدة للأرغواي.

استدللت بهذا كله يوم تكلمت عن الشركات متعددة الجنسية والعالم الثالث وكان رد فعل الحاضرين وجوم شامل. ليس من عادتهم أن يسمعوا ما هو مخالف للرأي السائد وإذا حدث ذلك تسمم يومهم وناصبوك العداء.

في مناسبة أخرى حضرها قدماء تلاميذ مكاليستر تكلمت إحدى زميلاتنا عن الآثار السلبية للسياسة الخارجية الأمريكية وسمعت كهلا يقول ونحن نغادر القاعة : «إنها تكذب» بينما قالت موظفة جديدة بالمعهد شيئا مشابها في انفعال شديد فقال زميل لها : «دعها تفيق على الحقيقة».

ليس لهم لا الاستعداد للنقد ولا الاستعداد لتقبله. يحسبونه قدحا.

عندما تكلمت عن الشركات متعددة الجنسية والعالم الثالث قلت إن الإنسان يفكر في أمريكا كلما فكر في هذه الشركات لأنها هي التي تملك منها العدد الأوفر وقلت إن معارضيها يرون أنها تأتي بمعداتها المجهزة وباختصاصييها وتقنييها بحجة عدم الإختصاص عند البلد المضيف فتقضي على النمو والتصنيع ولا تساهم في حل آفة البطالة.

أنها تضع المسؤولية بين يدي الأجانب ويأتيها القرار من المؤسسة الأم في نيويورك أو دترويت. ومع أنها تعين رئيسا مديرا من البلد المضيف، إلا أنه مدير صوري وحسب. أنها لا تأتي بالاستثمارات المتوخاة دائما وتعمد على العكس إلى السلف من الأبناك المحلية فتحرم المؤسسات الوطنية منها.

إنها تخرج الأرباح فتضر بميزان مدفوعات البلد المضيف.

إنها ارتبطت بالسمسرة والرشوة وأدت إلى اضطرابات خطيرة في بلاد عديدة.

إنها تحقق الأرباح الطائلة على حساب الشعوب الفقيرة.

إنها تأتي ببضاعة لا حاجة للشعب ولا مصلحة له فيها مثل الشوينكوم.

إنها الوجه الجديد للإستعمار، استعمار أستغلالي انتفاعي غير مرئي لأنه لا يصحبه لا الوجود البشري ولا الجيوش.

ورغم رغبة بلدان العالم الثالث في التحكم في اقتصادها ومراجعة علاقاتها مع الشركات الأجنبية، ورغم ظهور ما سمي بالنظام الاقتصادي العالمي الجديد والحوار بين الشمال والجنوب، إلا أن دار لقمان ما زالت على حالها بدليل أن هذه الشركات ما زالت تحقق الأرباح برغم ما تعاني منه البلدان التي تأويها من أزمات اقتصادية. وإذا كانت هذه الشركات تزعم أنها تساعد على النمو فإنه نمو في نطاق الاستغلال.

وانتهى كلامي وبدأت الحفلة وانطلقت معزوفات الفرقة الموسيقية وانتشرت في أرجاء الحديقة الواسعة التي تملكها شركة ثري إيم رائحة الهامبرغر يشوى على نار الفحم وبدأ الرقص والأكل والتمتع بنمط الحياة الأمريكية.

«لماذا تكرهوننا ؟. نحن نعلم أنكم تكرهوننا». قالت لنا ذلك كهلة في حفل حضره بعض مزارعي وسكونسن. كانت الحجرة مكتظة وصاخبة ونزل السؤال بغتة فأعقبه الصمت حتى تزحزح رجل طويل، نحيل كان يقول لي منذ حين :«إن الأرض التي اختطفها الرجل الأبيض من الهندي لم تكن لهذا الأخير لأنه هو نفسه كان قد أختطفها من هندي آخر». وعندما تزحزح على إثر سؤال المرأة تفضل بتفسير أغرب فقال : «ذلك لأنهم يغارون منا» وعاد الصمت ثم تطوع مزارع آخر بتصعيد جو المحاكمة فقال لزميلنا الإسباني وهو يشير إليه بسبابته : «أنت، قل لنا لماذا تكرهوننا ؟». نظرت إلى الصحفية الإرلندية التي كانت تجلس بجانب الإسباني ووجدتها تحملق في صاحب السؤال وتنظر حولها. وأحكم الحصار حوله فقال بلكنته الإسبانية وهو يضحك ضحكة متوترة : «نحن لا نكرهكم». صعد رده توتري فقلت ونزلت على النظرة الإرلندية : «أنت لا تقول الحقيقة». رماني بنظرة في استنكار وقلت للجميع هذه المرة : «لمساندتكم الأنظمة العسكرية الدكتاتورية واحتضانكم للكيانات العدوانية المدمرة والمشردة للشعوب».

أما جورج ولاس فقد قال لنا وهو يعد لحملة انتخابية انتهت بفوزه واليا على ألباما للمرة الخامسة : «إن لنا أعداء كثيرين في العالم. لا أعرف ما إذا كانت الناس تغار منا أم ماذا ؟ أم أن ذلك راجع للشيوعيين والمجاعة والحروب. على أننا نرسل الكثير من الأشياء إلى إفريقيا والكنائس».

وقال لنا آخرون كلاما من قبيل : «في جولتي الإفريقية كانت الوجوه تتهلل كلما عرف الناس أنني أمريكي» «هناك في العالم الثالث انبهار بأمريكا». «وجدت في المدن المغربية ترحيبا لم أجده في غيرها». «في طرابلس ليبيا القوا على الأزبال من السطوح لأنني أمريكي مع أنهم يقولون إن عدائهم للإدارة لا للشعب».

«ما رأيك في الولايات المتحدة ؟».

هذا هو السؤال الذي وضع علينا ألف مرة ومرة. في زيارة سابقة كنت قد رددت عليه بصراحة ما لبثت أن ندمت عليها. وضعته سيدتان على مائدة عشاء دعتاني إليه. وبعد إجابتي أصيبَتا بالوجوم وبكئابة صبغت العشاء بالأسى. إنهم عندما يسألون ينتظرون الثناء، وعلى كل حال فإن لديهم رفضا أو توما تكيا للنقد. ما الفائدة وحادثة مزارعي وسكونسون التي كهربت الجو ما تزال قريبة ؟. في بداية الرحلة كنت أقول أي شيء، مثل : «إنها بلد فسيح، قارة في حد ذاتها» وفي الأواخر بدأت أقول : «يجب أن أعود إلى بلادي لأتبين الصورة. إنها بمثابة لوحة جدارية ينبغي أن تبتعد عنها لتراها».

رحم الله ألكسي دوتوكفيل، لقد كان أكثر من فهم الأمريكيين. فهمهم أكثر مما فهموا أنفسهم وكتب عنهم بفكره الفرنسي اللاذع فقال : «لا أعرف مكانا آخر تسود فيه قلة حرية الفكر والنقاش مثل الولايات المتحدة الأمريكية (...) يتضح من الوهلة الأولى أن الأفكار في أمريكا صيغت في قالب واحد. قد تصادف كأجنبي أمريكيين شذوا عن القاعدة، يشجبون عيوب القوانين وتلونات الديمقراطية وعيوب الطبع الأمريكي ويعرضون البديل. إنهم يفضون إليك بحقائق لن تنفعك ولن تضرك وما ينزلون إلى الساحة العمومية حتى يغيروا الخطاب (...)

لقد نشرت في أكثر العصور أنفة كتب تصف بأمانة وسخرية عيوب رجال معاصرين. لا بروبير كان يقيم في قصر لويس الرابع عشر عندما كتب فصله عن العظماء وموليير كان ينتقد البلاط في مسرحيات يقدمها أمام حاشية الملك. أما السلطة في الولايات المتحدة فإنها لا تسمح بالنقد. العتاب الطفيف يجرحها والحقيقة الحادة تنفرها. يجب أن تطري فصاحتها وخصالها الحميدة. ولن يستطيع أي كاتب كيفما كانت شهرته أن يخل بقاعدة التملق للمواطنين. إن الأغلبية تعيش في عبادة للذات مستمرة وليس هناك سوى الأجانب أو التجربة لإيصال الحقيقة إلى سمعها: في بلاد أخرى يدان مثل هؤلاء الكتاب أما في أمريكا فلن يدان أحد لكن أحدا لن يفعل ما يستوجب ذلك».

ويقول إلكسي دوتوكفيل أيضا : «إن الأغلبية في أمريكا ترسم حول الفكر دائرة كبيرة وكل كاتب حر في أن يكتب ما يشاء ولكن في داخل الدائرة والويل لمن تجرأ وخرج عنها. ليس معنى ذلك أنه سيحرق ولكنه سيكون يوميا محط نفور وقمع من كل نوع. ستغلق أمامه أبواب السياسة لأنه أهان السلطة التي بيدها المفاتيح وسيحرم من كل شيء حتى الشهرة. إذا كان له أصدقاء سيهجرونه، سيدينه من يخالفه الرأي صراحة ولكن من لهم رأيه وليست لهم شجاعته سيلودون بالصمت ويبتعدون.

وهكذا ستجده ينوء تحت عبء المجهود اليومي ويدخل في عالم الصمت وكأنه قد ندم أشد الندم على أنه قال الحقيقة».

ويذكرني كلام دو توكفيل بما قالته الشخصية التي زارتنا في مكاليستر من أن لديها من المعلومات عن النفوذ الصهيوني في أمريكا ما تملأ به كتابا ولكنها لا تستطيع أن تفعل.

سألنا أساتذتنا عن السبب في كون كل أمريكي قابلناه يقول لنا : «ما رأيك في الولايات المتحدة ؟» وقالت أستاذة التاريخ الأمريكي الحديث : «إنهم في حاجة لأن يتأكدوا من أن العالم ما زال ينظر إليهم على أنهم الأمة رقم واحد». وكانت هذه واحدة ممن وجدتهم لا يجرفهم تفكير الأغلبية».

مرة واحدة خرج السؤال عن صيغته وجاء كما يلي : «من الأقوى في رأيك ؟ الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي» ؟ فقلت باختصار شديد : «الاتحاد السوفياتي» وفوجئت صاحبة السؤال وقالت بحدة : «لماذا ؟» فقلت لها : «لأن الولايات المتحدة ثبت أنها يمكن أن تهزم، فيتنام وإيران..» وتحول الغضب على وجهها إلى وجوم. لا شيء يقض مضاجعهم مثل الاتحاد السوفياتي والشيوعية إلى درجة جعلتني أتساءل هل يهول السوفيات بنفس الشكل من خطر الولايات المتحدة والرأسمالية ويجعلون منهما غولا يفسد عليهم النوم واليقظة.

الحقيقة أنني في ذلك الحين كنت قد أصبحت لا أعرف رأيي في الولايات المتحدة لكثرة ما كان يقدم لنا من محاضرات وأفلام وما كنا نقوم به من مقابلات وتنقلات وما كان يمر أمامنا من وجوه وأسماء. الأسماء في حد ذاتها كانت بالنسبة لي دوامة، أسماء الناس والأماكن.

وانتهت الدورة الدراسية ورحلنا إلى مونتانا، أرض منتزه الجليد. هنا بحيرة الجبل مثلما في شمال مينيسوتا بحيرة الغابة. الجمال هنا في جلال الجبل وسحر زهوره وأعشابه.

الثلوج تكلل الأعالي ببياض نقي وأشجار متنوعة لها شكل خاص. ومن الثلوج تنساب مياه باردة تتجمع وتشكل غدرانا وشلالات في طريقها إلى البحيرات وكأننا في سويسرا.

الفندق الذي نزلناه صورة طبق الأصل للبيوت السويسرية الريفية. شيدوه على جنب بحيرة يحدق بها الصنوبر ويعمل فيه طلبة وطالبات لهم مواهب فنية يتبرعون بها حالما تنتهي أشغالهم الفندقية. كانت مونتانا موطن البقر الوحشي الذي قضى عليه الرجل الأبيض للقضاء على الهنود لكن القدرة الإلاهية أرادت أن ينقرض البقر ويبقى الهنود. لذلك قال لي أستاذ أمريكي آخر ممن لهم القدرة على رؤية الواقع بشكل مخالف إن قولة ابن خلدون، إذا عربت خربت تصح على الأمريكيين وأنه إذا كان المقصود عند ابن خلدون تخريب العمران فإن المقصود عنده هو، تخريب الطبيعة.

البقر الوحشي الذي كان يعمر أمريكا أصبح له الآن متحف في مونتانا يأتي الناس لزيارته.

سكان مونتانا عددهم قليل ومدنها صغيرة حتى أنك قد تسوق مسافة أربعين كيلومترا دون أن تصادف سيارة واحدة.

في العاصمة هيلينا الضئيلة استضافتني صحافية تعمل بجريدة المدينة واستدعت بالمناسبة أصدقاءها لعشاء هامبرغر في الحديقة. كنت متعبة ولكن كان علي أن أجيب على السؤال المعهود «رأيي في الولايات المتحدة». كنت أتكلم على صوت موسيقى خافتة تصفيها مكبرات جد متطورة ولم أدر ما كنت أقوله حتى رجعت إلى سانت بول. ذلك أن إحدى زميلاتنا توصلت من مضيفتها في هيلينا بقصاصة مقال كتبته مضيفتي من مضمون كلامي تلك الليلة مع ما التقطته في حفل استقبال ببيت الوالي من أفواه باقي الصحفيين. ونقلت على لسان بعض اللاتينيين كلاما «لو بلغ إمامه لسفك به دمه» كما يقول الجاحظ.

قيل لنا إن للصحافة الأمريكية ثلاث قواعد لا يمكن ولا يجوز أن تخرج عنها وهي أن :

التصريح ليس للنشر.

التصريح ومصدره للنشر.

التصريح للنشر دون المصدر.

لكن ما كتبته مضيفتي كان حديث صالون غير وارد نشره أو عدم نشره. هناك إذن قوانين أخرى لأنواع أخرى من الصحافة الأمريكية. وذكرني ذلك بفضيحة صحافية الواشنطون بوست التي اخترعت من خيالها قصة طفل في الثامنة من عمره يتعاطى الهيروين.

كمين الإعلام الأمريكي

«لا يوجد شعب بريء مثل أمريكان الولايات المتحدة فهم لا ولن يفهموا لما يثور ضدهم شعب غواتيمالا، وهذا النقصان في وعي الذنب يشكل خطرا على الإنسانية».
هاينر مولر (رجل مسرح ألماني)

«ما هي جنسيات مراسليكم ؟».

قلت ذلك لنائب رئيس تحرير الأخبار الدولية في جريدة نيويورك تايمز عندما زرناها، وقال :

«نحن لا نستعمل الأجانب لأنهم لن يعرفوا كيف يتناولون الحدث بالنسبة للقارىء الأمريكي».

هذه أهم جريدة أمريكية، لها مراسلون في الخارج وتعد مصدر أخبار العالم بالنسبة لرجل الدولة والبرلماني والموظف السامي في وزارة الخارجية، تحرص على أن تقدم أخبارها الدولية من وجهة نظر أمريكية صرف. وعلى كل حال فهي لا تعطيها أهمية كبيرة على عكس صحف مماثلة في بلاد أوروبية أقل نفوذا. وهذا النقص عكسه استطلاع للرأي قامت به جريدة إنديانا بوليس نيوز عندما طلبت

من قرائها أن يذكروا أهم عشرة أحداث عرفتها السنة فلم يأت بين الردود حدث دولي واحد. ووزعت، على فصل في مدرسة ثانوية، لائحة بأسماء مشاهير غير أمريكيين من بينهم محمد رسول الله ﷺ ومحمد أنور السادات فجاء ضمن الأجوبة أن الأول هو رئيس الدولة الحالي للمملكة العربية السعودية وأن الثاني مغني مصري.

اهتمام الأمريكيين بما يجري في أمريكا وحسب فسره لي الأستاذ حسن مكوار عميد كلية الآداب بالرباط بأنه تركيز مهوس على الذات وأضاف : «عبثا تحاولين البحث في فهرس نيويورك تايمز أو الواشنطون بوست عن مقالات جوهرية عن موريتانيا مثلا». وذكرني قوله بقول رئيس شعبة الصحافة في مكاليستر. لقد أورد هو العنوان التالي كعينة للأخبار الدولية في الصحافة الأمريكية : «نمر يأكل خمسة أنفار في الهند» وقال : «إن هذا الإهمال لحضارات البلاد الأخرى وتاريخها نتج عنه التورط الأمريكي في فيتنام وجعل صورة الشرقي في مخيلة الشباب الأمريكي كوفية وعقالا وآبار بترول».

أخبار العالم (يسمونه بقية العالم) في الصحافة الأمريكية مبعثرة، غير متوازنة، غير مستمرة، لا توضح الخلفيات ولا تساعد على فهم التسلسل المنطقي للأحداث وإيران خير دليل على ذلك وهذا ما جعل رئيس تحرير الواشنطون بوست يقول : «إننا ندهش أكثر من اللازم ومما ينبغي لنا». نعم، هناك لا مبالاة القارىء بما يجري في العالم ولكن الصحافة لا تفعل شيئا لتداركه.

ووسائل الإعلام التي تتناول الأخبار الدولية تحرص على أن يفعل ذلك أمريكيون من وجهة نظر أمريكية ولا تجد تناقضا في أن يغطي أمريكيون ثمانين في المائة من الأخبار الدولية التي توزعها وكالاتها على أنحاء المعمورة بينما يتولى الباقي الوكالات الفرنسية والبريطانية والسفياتية مما جعل أربع دول بما أوتيت من إمكانيات تهيمن على سوق الإعلام العالمي وتخلق مشكل الإمبريالية

والتبعية الإعلامية المسلطتين على الشخصية الثقافية والتراثية للشعوب مما أدى بدول العالم الثالث إلى المطالبة بإحلال نظام إعلامي عالمي جديد، يقول دعاته إن المسلسلات التلفزيونية الأمريكية هدفها السيطرة الصناعية وأنها تبذر الثروات بتهافت برجوازية العالم الثالث على السلع الأمريكية وتفسد الأخلاق والقيم بتقديم العنف والتفسخ.

وإلى جانب الحركة الرامية داخل بلدان العالم الثالث إلى الحد من سيل أخبار الوكالات الأربع هناك حركة تجادل في امتلاك الولايات المتحدة لتسعين في المائة من وسائل المواصلات الدولية بواسطة الراديو والأقمار الصناعية وهما حركتان تعارضهما أمريكا بشدة لأن هذه الوسائل تمكنها من بث برامج إذاعاتها الموجهة إلى الاتحاد السفياتي وأوربا الشرقية في نطاق ستراتيجية سياستها الخارجية.

إهمال الأخبار الدولية عاينته وعانيت منه. رأيت الصحافي الساحل عاجي يشكو من عدم وجود أي أثر لأخبار كأس العالم لكرة القدم ويجد الدعم من زميلنا الإسباني الذي كانت بلاده تنظم تلك الألعاب.

وتكررت شكواه عندما بحث وبحثنا معه عن أخبار مؤتمر القمة الإفريقي الذي كان مقررا أن ينعقد في ليبيا. كان يضرب كفا بكف ويقول : «خمس العالم عند أمريكا غير موجود». لذلك غمرتنا الفرحة عندما وجدنا في أحد مكاتب وزارة الخارجية بعد رحلة طويلة إلى واشنطون نسخة من مجلة جون أفريك. كنا كمن وصل إلى البر. وتداولناها مبتهجين. عندها قررت أن «الإنسان حيوان يحتاج للأخبار». وبعد الغزو الإسرائيلي للبنان زادت هذه الحقيقة عندي ترسخا. أمام التركيز على المعدات الأمريكية لم يكن هناك إخبار بحقيقة ما يجري وكأن الأمر مجرد مناورات أو نوع من الأفلام البوليسية ورعاة البقر تبيعها شبكات التلفزيون ويتمتع بها المشاهد وهو مضطجع، يستهلك الذرة ومعلبات الجعة ويزهو بمعداته.

وبعد ذلك يأتيك من يقول : «لماذا ثار علينا الإيرانيون ؟» أو : «إنهم يكرهوننا لأنهم يغارون منا».

البراءة التي وصف بها هاينر مولر الأمريكيين ووضعها بين قوسين، يسميها آخرون بالغباء. والحقيقة أنهم ضحية بنية وتربية ونظام ومؤامرة إعلامية ذهب ضحيتها رجال الإعلام أنفسهم.

باستثناء خمسة أشخاص لم أجد بين من قابلتهم من يفكر بطريقة مخالفة للطريقة السائدة.

وفي استجواب أجرته معي صاحبة برنامج تلفزيوني في محطة روشستر، مينيسوتا قالت وهي تبتسم : «والآن دعينا نتكلم عن الرقابة في بلادك» فقلت لها : «بل دعينا نتكلم عن الرقابة في بلادك». وأسقط في يدها وقالت وقد غابت ابتسامتها : «تقصدين أن هناك رقابة على الإعلام في أمريكا ؟». قلت : «هل أروكم جثث قتلى الغزو الإسرائيلي للبنان ؟». المحطات الرئيسية تعزو ذلك للرقابة الإسرائيلية. لما لا تكون هي التي تفرض رقابتها على المراسلات ؟».

ورددت عليها ما قاله سيمور هورش وهو من أبرز الصحفيين الأمريكيين منذ أيام في مكاليستر ردا على سؤال يطلب رأيه في التغطية الأمريكية للغزو. لقد وصفها، وهو يهودي بالهراء ثم استدرك واستثنى مقالة ريشارد بن كرامر في جريدة فلاد لفيا انكوايرر وقال : «كان عملا رائعا عن قتل الأطفال، أقولها بحزن شديد، إن علينا أن نعود إلى الصحافة الأجنبية لمعرفة ما يجري» واستشهد بلوموند والكارديان وقال : «اقرؤوهما وستجندون فرقا فادحا وتركيزا على الضحايا المدنيين. ذلك أن هناك انحيازا قويا لإسرائيل في أمريكا واقتناعا بأن العرب ليسوا مثل سائر الناس، أنهم أقل شأنا، ولاقتناعنا بأن غرب بيروت لا يسكنه إلا الإرهابيون ولذا لم تعد لدينا رغبة في النظر إلى الحقيقة وجها لوجه».

وقبل ذلك في اليوم الخامس للغزو وقف البعض منا مذهولا أمام صورة نشرتها أهم جريدة يومية في مينيسوتا على صفحتها الأولى لأم قتيل إسرائيلي وأخته وهما تنتحبان على نعشه المغطى بالعلم الإسرائيلي. هل ستبقى الصحافة الأمريكية تقدم إسرائيل في صورة الضحية حتى وهي تغزو ؟.

وأثارت الصورة نقاشا حادا بين الصحفي التونسي وبيني من جهة وبين الصحفية الأسترالية ومدير المعهد من جهة أخرى. وفي العدد التالي من منشور المعهد كتبت كارين برانن مقالا بعنوان : «ويمثلون دور الضحية» تعرضت فيه للتغطية الصحفية الأمريكية للغزو. وذكرت ملاحظات أحد خريجي جامعة بلمونت في مساشوسيت التي ورد فيها : «تصفحت مجلد القصاصات الصادرة خلال الأسبوع الأول للغزو، في ست يوميات والعديد من المجلات ووجدت مائتين وخمسة وعشرين مقالة، واحدة فقط تعرضت للجانب الإنساني لهذه الحرب. لقد سمحت الصحافة للرأي العام بالجمود حتى كان الإسرائيليون على أبواب بيروت (...) لقد انشغلت الصحافة الأمريكية بالجانب التقني لحرب ذات عواقب إنسانية. كانت التغطية الأوروبية أفضل بحيث يخيل إليك أنك تقرأ عن حربين مختلفتين». وقال لها أستاذ جامعي مختص في شؤون الشرق الأوسط : «في الأسابيع الأولى مالت كفة الجانب العسكري في التغطية وأبرزت انبهار المراسلين بما يستطيع السلاح أن يفعله». وقال لها مصور بمجلة ناشيونل جيوغرافيك اعتنق الإسلام : «إن الفلسطينيين، تاريخهم وثقافتهم وواقعهم السياسي هي المسألة الوحيدة المخفية عن الشعب الأمريكي والخاضعة للرقابة. وأكثر من أقابلهم هذه الأيام يسألون : من أين خرج هؤلاء الفلسطينيون ومن يكونون ؟ إنهم كل الناس، إنهم الشرق الأوسط. وهذا هو السر المستور عن الأمريكيين والمستور أقل من ذلك عن الأوروبيين. وهاقد نالت الصحافة الأمريكية جزاءها وها هي الحقيقة قد ظهرت وها هم أولئك الناس العظماء الطيبون يتحولون بغتة إلى قتلة يسفكون الدماء ويمزقون الأشلاء بالقنابل الفسفورية. كثيرون أثاروا ذلك لأول مرة وأصيبوا بهزة وعندما يهدأ كل شيء سيبدأ النقاش حول التغييرات الجذرية التي يجب أن تدخل على تغطية أخبار الشرق الأوسط في الصحافة الأمريكية».

إن قلت لهم إن الصهيونية التي تتحكم في إعلامكم تسيطر عليكم من حيث لا تعلمون غضبوا وقالوا : «تعالوا واسمعوا الصهيونية تسيطر على أمريكا» !!.

لا تحاول فإنك لن تعدو أن تكون إلا بمثابة من قال في عصر الانحطاط إن الأرض تدور وسيصفونك بالعنصرية. ومع ذلك فإنها تسيطر بحيث تعامل إسرائيل كما لو كانت الولاية الواحدة والخمسين والعرب والفلسطينيون كما لو كانوا الشيوعية.

اخترت أن أقضي فترة تدريب في مجلة ميز وكنت قد قرأت في آخر أعدادها مقالا بعنوان : «عنصرية ضد السامية في الحركة الأنثوية العالمية» ساقت فيه كاتبته الحجج التالية على ذلك :

«أن منظمة التحرير الفلسطينية احتكرت مؤتمر مكسيكو النسوي في 1975 لإعلان أن الصهيونية حركة عنصرية».

«أن أمريكية سوداء رفضت أن توقع ملتمسا صهيونيا في مؤتمر كوبنهايغن النسوي في 1980».

«أن هولندية قالت لأمريكية في مكسيكو :

إن صديقتي اليهودية رأتني وأنا أوزع منشورات منظمة التحرير الفلسطينية فردت عليها : وأنا كذلك ولكنني لا أبالي».

«أن لجنة اللاجئين في كوبنهايغن رددت : إسرائيل تقتل الأطفال منظمة التحرير الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية».

الحركة النسوية العالمية فيها عنصرية ضد السامية لأنها نددت بالصهيونية وساندت منظمة التحرير الفلسطينية ؟. كيف تنشر مجلة مثل هذا الهراء ؟ كنت ما أزال أقلب هذه الحساسية التي تحشر السامية في كل مكان بالحق وبالباطل عندما قابلت رئيسة تحرير ميز فقلت لها :

«هل تعتقدون حقاً أن في الحركة النسوية العالمية عنصرية ضد اليهود ؟».

فوجئت وتضايقت ولم تجب فقلت لها لما انتظرت ردها ولم يأت : «لن يصدقكم أحد».

والآن وبالمقابل ما موقف ميز وهي «المجلة المناضلة الرامية إلى رفع الظلم عن النساء حيثما كن من المرأة الفلسطينية وبماذا نسمي تجاهلها ؟.

قبل جريدة «الولايات المتحدة اليوم» التي أنشأتها شركة كانيت في 1982 لم تكن هناك يومية توزع على النطاق الفدرالي وإن كان لنيويورك تايمز والكريستيان ساينس مونيتور قراء في مجموع التراب الأمريكي فلقد دعت إلى لا مركزية الصحافة شساعة الحيز الوطني ومطالب الإعلان المحلي.

ولذا انتشرت الصحافة الجهوية وبلغ عدد اليوميات ألفا وسبع مائة، والأسبوعيات ثمان مائة.

التايمز والنيوزويك هما أهم المجلات الأسبوعية، وتوزع الأولى أربعة ملايين نسخة والثانية ثلاثة ملايين.

على أن منشور برامج التلفزيون يبيع تسعة عشر مليون نسخة أسبوعيا ويأتي في المقدمة قبل الريدرز دايجست الذي يوزع ثمان عشرة مليون نسخة.

سبعون في المائة من الأمريكيين يقرؤون الصحف ويمتلك نصف البيوت جهازي تلفزيون. هناك ثلاث شبكات تلفزيون رئيسية وسبع مائة محطة مرتبطة بها. وينص القانون على أن الشبكات الرئيسية لا يحق لها أن تملك أكثر من خمس محطات ولكنها تمنح برامجها بالمجان لكسب أكبر عدد من المحطات الصغرى ومن ثمّ مزيدا من المشاهدين لإعلاناتها.

ويسمى العموم التلفزيون المزبلة الثقافية الكبرى تعبيرا عن عدم رضاه عن برامجه ولذلك أو جدوا له البديل في التلفزيون السلكي الذي يكلف عشرين دولارا كل شهر وتبث برامجه بواسطة تجهيزات خاصة.

وهو يقدم الخدمات والبرامج مثل المباريات الرياضية والأخبار بحيث يمكنك في أي وقت تتبع الأخبار من محطة لا تبث غيرها طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم أو الإبراق إلى الشبكة الرياضية للحصول على مباريات البايس بول التي جرت في نفس اليوم في مجموع التراب الوطني.

قد يتبادر إلى الذهن أن نظاما من هذا النوع خليق بإقلاق بال الشبكات التقليدية والحقيقة أنها اطمأنت إليه لأن برامجها هي أقل تكلفة وذهبت أبعد من ذلك فاقتنت بعض محطاته.

وتقدر الإذاعات في أمريكا بـ 7500 وأجهزة الراديو بأربع مائة مليون وهي إذاعات مختصة في أنواع الموسيقى مثل الروك والجاز والموسيقى الشعبية وأحيانا في أنواع اللون الواحد حيث توجد في شيكاغو مثلا خمس محطات تقدم خمسة أنواع من الروك، لأن شيكاغو تحب الروك.

المحطات الإذاعية تعمل أوتوماتيكيا وتضمن نوع المستمعين ونوع الإعلان الخاص بهم.

وهناك من جهة أخرى ألف محطة غير تجارية ثلاث مائة منها متحدة والباقي يحصل على ميزانيته من الدولة ويثير معارضة في الكونغريس تريد للحكومة أن تبقى بمنأى عن الإذاعات مما سهل على ريغن تخفيض ميزانيتها.

أخبار التلفزيون مصوغة في قالب واحد وتركز على المرئيات ومن النقد الموجه إليه أنه تسود فيه قيم الطبقة البيضاء المتوسطة ويمر على أخبار الأقليات مرور الكرام وأنك حين تجد السود في الأخبار مثلا يكون الأمر متعلقا بالرياضة. ذلك أن أخبار السود في أمريكا سوقها كاسدة تجعل الصحفي الأسود أمام طريق مسدود.

ولذا ظهر إعلام الأقليات ووصم الإعلام الأمريكي بالطبقية وأصبحت للأقليات إذاعاتها وصحفها مثل «شيكاغو ديفندر» و«ذو بالتيمور بلاك» و«ذوبلاك مسلم» وهي صحف فقيرة وسائلها متخلفة، تعنى بالعنف والحرب والجنس والنجوم، شتان ما بينها وبين الصحافة البيضاء التي تتاجر في الأخبار وتستخدمها لكسب المال والنفوذ وتخصص ستين في المائة من حجم الجريدة للإعلان، فإن الإعلان في الإعلام الأمريكي الأبيض يعني المال مما أجرى على الألسن القولة الشائعة «الوقت (في التلفزيون) مال»، لا سيما وقت الأخبار ولذلك تبلغ فترات الأخبار في الشبكات خمس ساعات في اليوم ويحرصون على أن تكون مسلية ويعلنون

عن محتوياتها لتشويق المشاهد مما جعل أقسام الأخبار تعيش في صراع مستمر وجعل عبارة «ابقوا معنا» تتكرر على المسامع بلا فتور. مرة واحدة في تاريخ التلفزيون الأمريكي خرقت القاعدة وسجلت فترة البرامج أعلى سعر إعلاني، كان ذلك في اليوم الواحد والعشرين من نونبر 1980، عندما كان واحد وأربعون مليون بيت ونصف، أي ما يشكل خمسة وثمانين مليون مشاهد يضبطون أجهزتهم على شبكة سي بي إس، ليعرفوا من ضرب جي إر بالرصاص. في تلك الحلقة من مسلسل دالاس بلغ ثمن الإعلان عن ثلاثين ثانية مائتين وخمسين ألف دولار.

ويعرف أصحاب الإعلان عدد مشاهدي كل شبكة عن طريق علب إلكترونية ملحقة بالجهاز ومتصلة بشركات مختصة تبيع معلوماتها وإن كانت هذه الطريقة عرضة للطعن لأنها تخبر عن الشبكة المضبوطة ولا تخبر عما إذا كان هناك في الحجرة من يشاهد لا سيما وأن الأمريكي معروف بكثرة التنقل إلى المطبخ للأكل والشراب.

ونظرا لضغوط الإعلان سقط التلفزيون في مطب التملق وابتعد عن الموضوعية أكثر بكثير من الصحافة التي ما زالت تواصل دور الرقيب والناقد وتزود الناخب بأخبار عن أخطاء الحكام ضمانا لوجودها ولذلك سميت بكلب الحراسة. ولعل ووتر غايت خير مثال فلقد كانت الصحافة هي من اكتشفها وأعطاها حجمها دون أن تكون للحكومة قدرة على منع ذلك. وإذا كان هذا يحل الصحافة الأمريكية مكانة المعارضة لا سيما وأن الحزب غير الحاكم ليس بمعارضة فإن الواقع يشهد بتعاون الإعلام مع النظام فهو كثيرا ما يستقي معلوماته من الأجهزة البوليسية ويبقى بالمقابل معلومات أخرى في طي الكتمان تحت غطاء الأمن القومي. وفي لقائنا بسيمور هورش أدهشتني كثرة استناده في ذكر مصادره إلى السي. آي. إي ومديرها وكأنه يتحدث عن وكالة أنباء لا عن وكالة مخابرات.

إن الحدث في أمريكا لا يكون حدثا إلا وهو «حبر على ورق»، وفي هذا المعنى رأيت كاريكاتور طفل يسأل والده : «إذا سقطت شجرة في الغابة ولم يكن الإعلام حاضرا أتكون الشجرة قد سقطت فعلا ؟».

نعود للتلفزيون ونجد أن له دورا هاما في الإنتخابات، يزيده أهمية تغير الرأي العام بسرعة بدليل نتائج استطلاعات الرأي العام وإن كانت تتلاعب بمعاني الألفاظ كما تشاء وتوعز بالجواب أحيانا، حين تقول مثلا :

«إن منظمة التحرير الفلسطينية تقوم بأعمال تخريبية في إسرائيل، هل تعتقد أن من حق هذه الأخيرة الهجوم عليها لضمان أمن حدودها ؟».

وعندما يأتي الجواب بنعم يعلنون أن كذا وكذا في المائة من الأمريكيين يساند الغزو الإسرائيلي للبنان.

ويلزم التلفزيون ببيع المرشحين وقتا متساويا أو ألا يبيع أحدا وتراقب ذلك لجنة المواصلات الفدرالية التي أنشأها الكونغريس.

وزيادة في صنع المال دخلت الصحافة الأمريكية عصرها الإلكتروني فبدأت تستعمل الكومبيوتر والآلات المتطورة لإخراج نسخ مختلفة من الجريدة بعدد المناطق والجهات لتجد كل منطقة ما يعنيها بحيث أن إعلانات النسخ الموجهة إلى المناطق الفقيرة مثلا تدور حول بضائع وأطعمة التصفية. لذلك بدؤوا يستعملون لفظ «توغل» عوض «توزيع» للدلالة على عدد البيوت الذي تدخله الجريدة في منطقة ما لأن ذلك ما يعني صاحب الإعلان ولم يتوقف الأمر عند هذا فبدأت شركة كانيت التي تملك خمسة وثمانين جريدة بحثا لمعرفة عدد الذين يريدون قراءة جريدتهم على شاشة التلفزيون.

العرب والإسلام في أمريكا

«إن المشاكل الإجتماعية الأمريكية معروفة، العنصرية، تفكك الأسرة، اختلاف الأجناس، الخمر. حسنا، الإسلام يجزم بأن له حلولا جذرية لكل هذه الآفات».

البروفسور إسماعيل الفاروقي
من جامعة تامبل

في الطائرة من باريس جلست بجانبي سيدة فرنسية وابنتها وتكلمتا بسخرية عن فطرة الذوق الأمريكي. برغم تفوق الأمريكيين العسكري والتكنولوجي ما زال الفرنسيون ينظرون إليهم من فوق، نظرة استعمارية. من بين كل ثلاثة أمريكيين زاروا فرنسا يقول لك اثنان : «الفرنسيون لا يحبوننا» ويحسبون أنهم وحدهم عرضة لعقدة الكمال الفرنسية.

تحدثت جارتي الشابة في الطائرة عن زوج خالتها النيويوركي وقالت : «مرة ونحن نستعد للخروج لبس سروالا بمربعات وقلنسوة مخططة وقلت لخالتي : «هل سيخرج إلى الشارع هكذا ؟» وضحكت من صميم قلبها ثم قالت : «كان كالبهلوان» وقالت أمها وهي تبتسم : «هذه المرة اشتريت له بلوفر من عند كاردان وقالت ابنتي الأخرى : «سيلبسه لك مع سرواله ذي المربعات».

وفي مطار كيندي أدركت وأنا في انتظار طائرة إحدى الخطوط الداخلية ما عنته الفرنسيتان. رأيت فوضى الألوان والأشكال. يلبسون الأصفر مع الأخضر مع الأحمر مع أي لون، المهم أن يكون صارخا وتعجبت من حب الأمريكيين للمربعات وللألوان الزاهية ومن تسريحات النساء الصفراء المنفوشة. ما هذا ؟ أين هذا من نساء هوليود ؟ الفرق كالفرق بين الواقع المصري وصورته في السينما.

فيما بعد وجدت ما كرس أفكاري المسبقة. لم أجد مثلا من يعرف لا قليلا ولا كثيرا عن المغرب أو يهمه أن يعرف. لم أجد إلا من يسأل : «ما رأيك في الولايات المتحدة ؟» أو «ما هي صورة الولايات المتحدة في بلادك ؟».

وحاولت أن أسترجع هذه الصورة وذهبت في ذلك إلى أبعد ما يمكن. من الطفولة هناك أفلام رعاة البقر التي كان الهندي يتحول فيها إلى وحش نرهبه ونزدريه ونريد له الموت ليسلم من شره الأروبي الأبيض الوسيم.

في دروس الجغرافيا كانت أمريكا عالما جبارا، زاخرا بالزرع والضرع، ينبت الدولار فيه في الشجر.

من دروس الإنجليزية هناك صورة الصليب المشتعل واللباس الأبيض الذي يغطي الرأس على شكل قلنسوة لا تبدو منها إلا العينان، رمز الكراهية والعنصرية والكوكلوكس كلان. من أيام الكلية هناك أن الإنجليزية الأمريكية مائعة، سائحة على جوانبها مثل ساعات سلفادور دالي. كنا كلما استعملنا مصطلحا وقيل لنا إنه أمريكي عمدنا إلى تغييره على الفور. كانت لدينا القناعة بأن الإنجليزية الأمريكية سوقية.

هناك أيضا أن أمريكا هي موطن شيكاغو أي الجريمة وأن الأمريكي شخص متخصص بمعنى أنه محدود، أنه على الفطرة، يلبس نسيج الكتان الأزرق وأحذية رعاة البقر ويتمدد على البلاط في المجالس ويمشي في متاجر المواد الغذائية حافي القدمين، عاري الجذع بجينز قديم مقصوص عند الركبتين، أنه يأكل البطاطس بقشورها وتلبس نساؤه معاطف الفرو مع أحذية التينيس.

وبعدما رجعت إلى المغرب سمعت من يحكم على مغربي يعيش في نيويورك بأنه سوقي لأنه رآه بعينيه هاتين يجلس في مشرب فندق بالرباط ويضع قدميه على المائدة وذكرت يوم زرنا عميد جامعة هارفارد واستقبلنا في مكتبه الفخم وحدثنا من رأس المائدة وهو يضع أمام وجوهنا قدما على قدم بحيث أن أكثر ما نرى منه هو نعل فردتي حذائه الجديد.

وعندما دار الحديث في بيت أستاذة علم الاجتماع بمكاليستر بحضور جمع من النساء عن العنصرية الأمريكية ضد العرب رفضت الفكرة من أساسها فقالت أستاذة الأنتروبولوجيا لإقناعي : «أيام دراستي كانت الطالبات في جامعة تكساس يأنفن من مصاحبة السعوديين» فقلت : «لو قلت إن هناك عنصرية في فرنسا ضد العرب لوافقتك. فرنسا لها تاريخ استعماري ولها عمال من شمال افريقيا، أما هنا فلا يأتيكم من العرب إلا الأثرياء وأنتم مجتمع يحترم الفرد فيه بقدر ما يملك، ثم إن العرب أبدعوا حضارة من أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية فكيف يكونون عرضة للعنصرية وفي أمريكا بالذات ؟» قلت ذلك وأنا أعني ضمنيا أمريكا التي سقطت مع الأمطار الأخيرة ولعلهم يجهلون ذلك أيضا جهلا كاملا، أعني تاريخ العرب الحضاري.

وخيم الصمت والحرج ثم قالت صاحبة البيت : «لعل من الأصح أن نقول إن هناك أفكارا مسبقة عن العرب. قلت : «إذا كانت الحكاية حكاية أفكار مسبقة فنحن أيضا لدينا منها».

دحضت أسباب العنصرية ضد العرب أما أن تكون بالفعل فهو أمر محتمل. وقد قال سيمور هورش الصحافي الأمريكي المعروف عندما تكلم في مكاليستر عن الإنحياز الأمريكي لإسرائيل إنه يعود إلى القناعة السائدة بأن العرب أقل شأنا.

وقالت الدكتورة إيفون حداد في بحث لها حول الإسلام في الولايات المتحدة : «إن النزاع العربي الإسرائيلي قد حدا بالصهيونية إلى نشر العديد من الإشاعات عن الإسلام والمسلمين» وأن تيريل يقول في الجزء التاسع من ماسادا رقم 1، 1977 التي تنشرها فيدرالية الشباب الصهيوني : «إن العرب ليسوا كسكان فلا

دليفيا أو فرنسا أو حتى إسرائيل (...) أنهم يؤمنون بديانة حربية غير غربية (...) وأن العربي في كل الأحوال يسل سيفه بسرور ولا يكون أقرب منه إلى الله كساعة ما ينتهي من المجزرة وأن العربي، أي عربي ولا سيما المؤمن جار كريه».

وقالت الدكتورة حداد : «إن الفيلسوف المعروف لين راند قال في برنامج تلفزيوني أذيع يوم 12 يونيو 1979 «إن العرب لفيف من الهمج وأنهم عنصريون يرفضون إسرائيل لأنها جاءت بالصناعة والتكنولوجيا والذكاء» وقالت : «إن برامج تلفزيونية تفرغ على العربي صفات الخبث والقسوة والضعف والانحطاط والغدر والشره والمكيدة والمكر والتهافت على الجنس». وقالت : «إن نصوصا في كتب علم الاجتماع والكتب المدرسية تكرس هذه الأفكار».

هذا فيما يخص انحياز الرأي العام، أما الإنحياز الرسمي فلا تقل إنه يعود إلى النفوذ الصهيوني. لقد قلت ذلك يوم الغزو الصهيوني للبنان، عندما نشرت جريدة منيا بوليس ستار أند تريبيون على صفحتها الأولى صورة أم وأخت جندي إسرائيلي قتيل وهما تنتحبان على نعشه وظلوا يستنكرون ويسألون : «تقصدين أن هناك تأثيرا صهيونيا في أمريكا» ؟ ولم يلوذوا بالصمت حتى جاءت شخصية أمريكية مطلعة وقالت : «إن نظام الحكم الأمريكي خاضع للنفوذ الصهيوني وأن لديها من البراهين على ذلك ما تملأ به كتابا لكنها لا تستطيع أن تفعل فمضوا يرمقونني من طرف خفي وقال أحدهم مستسلما «حسنا إنه يعرف ما يقول على كل حال».

إنه النفوذ الصهيوني بالطبع وإلا كيف يرد رئيس الدولة على سؤال حول التناقض في الموقف الأمريكي بين الغزوين السوفياتي لأفغانيستان والإسرائيلي للبنان بأن من الصعب تحديد ما إذا كان ما تقوم به إسرائيل في لبنان هجوما أو دفاعا ؟. ولماذا يصرح وولتر مونديل مرشح الديموقراطيين للرئاسة والغزو قائم على قدم وساق : «إنني أتعهد بمواصلة تزويد إسرائيل بالسلاح إذا فزت بانتخابات 1984» ويصرح أمريكي من أصل لبناني في مؤتمر الديمقراطيين بأنه يساند الغزو لأنه ينوي ترشيح نفسه للكونغريس ويقول جورج لا تيمر عمدة سانت بول

اللبناني الأصل : «إن إسرائيل تستعمل الأموال الأمريكية ولا تكلف نفسها حتى مجرد استشارة الحكومة الأمريكية في كيفية استعمالها» ثم يعود عندما يسأل : «هل تستطيع أن تقول ذلك علنا أو أنك لا تقوله إلا في حديقة بيتك الخلفية ؟» فيقول : «لا. لا. لا أستطيع». ولماذا يطلب ريغن من وزير خارجية إسرائيل انتظار رسالة منه لبيغن في عز الغزو فيرفض بدعوى المشاغل التي تنتظره ويكتفي رئيس الدولة الأمريكية بإرسالها بوسائله ويكتفي الإعلام بوصفها بالجفاف لأنه صدرها بقوله من ريغن إلى بيغن والعادة أن يقول من رونالد إلى ميناحيم ؟. ولماذا يهدد ريغن بوقف السلاح عن إسرائيل واعتبار ما تقوم به غزوا فيضرب بيغن بالتهديد عرض الحائط ويقول أمام مائتي يهودي جاء بهم من نيويورك : «إن اسرائيل لن تقبل دروس وعظ من أحد» ويواصل ضرب بيروت الغربية ؟ ثم يصرح ناطق باسم البيت الأبيض بأن «إسرائيل تطلب إحدى عشرة طائرة من نوع ف 5» ويقول الناطق باسم البانتاكون : «إنها تطلب ما قيمته مليار ونصف من الدولار على شكل مصفحات وأسلحة خفيفة وعربات من مختلف الأنواع وصواريخ وقطع غيار ودخيرة وخدمات تقنية وأن ذلك سيسلم لها في 1985 بشرط استعماله في الدفاع ؟». ولماذا يعلن الناطق باسم البيت الأبيض : «إن الضغط على إسرائيل بوقف تزويدها بالسلاح لن يجدي لأنها مسلحة بما فيه الكفاية لمواصلة قتال الفلسطينيين». ويقول ناطق باسم الكونغريس ؟ : «إذا كان المقصود بعدم تزويد إسرائيل بالسلاح هو منعها من القضاء قضاء مبرما على بيروت الغربية فقد فات الأوان وأن ترحيل الفلسطينيين من غرب بيروت ممكن إما بالتفاوض وإما بالقوة وما دامت إسرائيل قد اختارت الحل الثاني فإن عقابها يعني تدخل الولايات المتحدة في شؤونها».

يكفي قدر يسير من الملاحظة لاستنتاج أن الأمر يتعلق بالنفوذ وأن يكلف المرء نفسه أن يتساءل : «لماذا نعامل إسرائيل معاملة خاصة جدا ؟» لكنهم لا يتساءلون وإن قلت لهم رموك بنظرة أهل الكهف.

يبلغ عدد اليهود في أمريكا ستة ملايين ويفوق عددهم في اسرائيل وهم يرتكزون في نيويورك. قابلت بعضهم وتعرفت على نسائهم اللاتي أنيطت بهن مهمة إنشاء مجلة ميز والتي ذكرت وأنا داخل مكاتبها قولة شاب مغربي ملتحي في إحدى التجمعات النسوية بالرباط : «إن الحركة الأنثوية في أمريكا وأوروبا إنما صنعتها الصهيونية».

طُبعت علاقتي بنساء ميز بالفتور طيلة الأسبوعين الذين قضيتهما بينهن في نطاق التدريب الذي ينظمه المعهد في إحدى وسائل الإعلام الكبرى.

وجدتهن مترجلات، مديرتهن تدخن السيكار، لا يردن في الواقع إلا التحرر من عقدة الرجل ويبذلن المستحيل لإخفائها وإثبات أنهن قادرات.

وتعرفت في نيويورك على يهودية تعمل في ميدان الأزياء عن طريق الصحافية الأسترالية التي تشارك في البعثة، واستمرت علاقتي بها بلا غيوم لأن كلا منا كانت حريصة على تفادي الموضوع الحساس، لكنه كان ماثلا، بمثابة جرة مغلقة نعرف أن بداخلها ثعابين، هي مصدر قلق سواء فتحت أم لا وفي النهاية تكسرت الجرة من شدة الحرص، كنا عائدتين من بروكلين على الأقدام حيث دعوتها لطعام مغربي في مطعم لبناني. ولا أدري كيف انتهى الحديث إلى أحداث لبنان والغزو ومذابح صبرا وشاتيلا والنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة.

اتخذت أنا خُطة الهجوم وتولت هي الدفاع، الغزو ليس غزوا، إنه دفاع ضد فلسطينيين يريدون القضاء على إسرائيل وعرب يرفضون الاعتراف بها. الصهيونية لا نفوذ لها البتة في أمريكا وأنا التي أقول ذلك. إسرائيل ليست في حاجة إلى السلاح الأمريكي. إنها تستطيع أن تصنع ما يفوقه. أما صبرا وشاتيلا... في الحقيقة، عرب البترول هم الذين من صالحهم أن تتأجج الحرب ليستمر الطلب.

كنا نمشي في ممر الراجلين في جسر بروكلين الحديدي المرهب. النهر بعيد تحت أقدامنا، يبدو من خلال الفجوات وإلى اليسار تمرق السيارات فيهتز الجسر في ضجيج تمتزج به أصوات المحركات فنضطر لرفع صوتينا.

وخرجنا من الجسر ومشينا في صمت وفكرت أن لا سبيل للتفاهم. بيننا مشكل كبير كل منا تشعر به من موقعها بعاطفة مشبوبة.

أما العرب الأمريكيون فكلما سمعت من يثير لا مبالاتهم تصورت عمدة سانت بول وهو يفقد الزمام ويثور وتصورت زوجته وهي تهرع إلى جانبه في محاولة يائسة لتفادي الكارثة. لا تيمر هذا برغم اسمه ورغم أنه لا يتكلم حرفا من العربية نظلمه إن قلنا إنه لا يبالي.

وهؤلاء الذين يسمون بالعرب الأمريكيين جاؤوا في بداية الأمر من الشام وتفرقوا في أمريكا وراء غريزتهم التجارية حتى انصهروا في المجتمع الأمريكي.

وإذا ما رجعنا إلى الصحف التي كانوا ينشرونها باللغة العربية في العشرينات وجدنا ركاكة في التعبير تدل على بداية إفلات العربية من بين أيديهم وقد كانت الحكومة الأمريكية حرصا منها على الوحدة الوطنية ترمي إلى القضاء على لغات المهاجرين وكان الأطفال يعاقبون في الفصل إذا تكلموا لغة آبائهم ثم لم تلبث المنشورات العربية أن انقرضت بسبب ضعف لغة ناشريها وقلة القراء ومنافسة الصحافة الأمريكية. وأدباء المهجر المشهورون لم يكن الأمريكيون يعرفون منهم إلا جبران خليل جبران أما الذين كتبوا بالإنجليزية فقط أمثال وليام بلاتي السوري الأصل فإن أعمالهم لم يظهر فيها أثر للتراث العربي. ولأنهم ذابوا في المجتمع الأمريكي فإنهم كانوا في البداية ينظرون إلى القضية العربية من موقعهم كأمريكيين.

كان من المنتظر والحالة هذه أن تذهب عروبتهم لولا قدوم دفعتين جديدتين في أعقاب إقامة إسرائيل وبعد حرب 1967 أغلب من فيها فلسطينيون ومن بينها عناصر من المغرب العربي. وكانت جذوة هؤلاء القومية متأججة فأشعلت عروبة من سبقوهم وبدأوا يسخطون على ما يرونه حولهم من عداء للعرب وهكذا ولدت منظمات وأندية لتوعية الرأي العام بالقضية العربية ومحاربة الإشاعات عن العرب.

وبدأت الجامعات تدرس الفكر الإسلامي والتاريخ والحضارة العربيين وبدأ أبناء العرب يدرسون اللغة العربية في الجامعات ويقومون بأبحاث حول العرب والعرب الأمريكيين ورجعت للأسر العربية تقاليدها في الطبخ والموسيقى، وفي هذا الإطار تدخل جولة فيروز في الولايات المتحدة مرتين.

وزامنت الصحوة العربية سياسة النفط لا سيما والمجتمع الأمريكي قائم على التكنولوجيا والصناعة والأموال فسلطت الاهتمام على أن البلاد التي تملكه هي بلاد عربية إسلامية.

كان المهاجرون الأوائل يعدون على رؤوس الأصابع لأنهم كانوا يخافون على دينهم من الهجرة والذين جاؤوا إلى أمريكا فتنوا بالفعل في دينهم نظرا لتبعثرهم ولانعدام المساجد وضعف اللغة العربية والزواج من غير المسلمين حتى بدؤوا يتسمون بأسماء أمريكية.

وتقول الدكتورة إيفون حداد في دراسة ظهرت في نشرة جمعية الأمريكيين من أجل تفهم الشرق الأوسط في 1979 إن الإسلام قد أصبح ظاهرة أمريكية بعدما كان ينظر إليه كنمط عيش عربي وعقيدة مخالفة للتراث المسيحي فوصل بفضل قوته وحجمه إلى مكانة جعلت منه إحدى أبرز الحركات الدينية في الولايات المتحدة وأكثرها انتشارا وقالت إنه اتضح في الاحتفال بالذكرى الخمس مائة لميلاد كريستوف كولومبس في 1955 أن مكتبته كانت تضم كتابا للجغرافي المغربي الإدريسي يصف فيه اكتشاف ثمانية عرب للشاطيء الشرقي للقارة الأمريكية وأن هذا الكتاب هو الذي ألهم كولومبس القيام برحلته الشهيرة وقالت إنه اصطحب معه مترجما إسبانيا من أصل عربي يدعى لويس الطريس وأن هناك وثائق تتحدث عن وصول عبيد إلى أمريكا في 1917 يتكلمون اللغة العربية ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير وأن وثائق أخرى تتحدث عن وجود مغاربة في جنوب كارولينا في 1790 صوت برلمان الولاية على ألا يطبق عليهم قانون الزنوج لأنهم رعايا العاهل الذي كان أول من اعترف باستقلال أمريكا. وتقول إن الدفعات الجديدة لم يكن فيها إلا الشيعة وأن العديد منهم منعوا من الدخول

وظهرت العنصرية ضدهم وحكمت إحدى المحاكم بعدم صلاحيتهم للمواطنة. ومع أن محكمة استئناف ألغت هذا الحكم إلا أن الجدال استمر في الصحافة حول ما إذا كان يمكن اعتبارهم زنوجا استنادا إلى حجم أنوفهم ورؤوسهم. وقالت إن دفعة الخمسينات كانت ورائها أسباب سياسية فشملت الفلسطينيين الذين أبعدهم إنشاء إسرائيل والمصريين الذين فقدوا أراضيهم في نطاق سياسة الإصلاح الزراعي الناصرية والوجهاء السوريين الذين لم يشاركوا في الحكومة الجديدة والعراقيين الذين فروا من النظام الجمهوري ومسلمين من أوربا الشرقية فروا من الشيوعية وأن اندماج هؤلاء لم يكن صعبا لأنهم كانوا قد تعلموا في مدارس الغرب. وقالت إن السماح في عهد جونسون بهجرة الكفاءات الآسيوية التي كان الاقتصاد الأمريكي في حاجة إليها قد جاء بمسلمين من أندونيسيا وباكستان والهند وبهنود وباكستانيين مسلمين كانوا معرضين للاضطهاد في بلاد افريقية وأن العديد من اللبنانيين الذين لهم أقارب في الولايات المتحدة جاؤوا إليها في أعقاب أحداث لبنان بعد 1975. وتقول إن عدد المسلمين في الولايات المتحدة حوالي ثلاثة ملايين، الثلث منهم أمريكيون اعتنقوا الإسلام وأكثرهم سود.

وتقول إن هناك أكثر من ثلاثمائة مسجد وجمعية إسلامية في الولايات المتحدة. وتذكر من المسلمين السود على درو الذي ظهر في بداية القرن وكان من أوائلهم والذي قال بأن المسيحية ديانة الرجل الأبيض في أمريكا والإسلام هو ديانة السود وأن الفصل بين الأمتين واجب وتقول، إن أتباعه انقسموا بعد وفاته في 1927 فانضم بعضهم إلى حركة فارد في دترويت التي قادها من بعده محمد ألجاح الذي لقب نفسه برسول الله والذي كان ينسب صفة الشّر للبيض وصفة السواد لله والذي كانت معتقداته وعباداته منافية للإسلام لكن ذلك تغير وأصبحت الحركة منذ 1975 تطبق تعاليم الإسلام وأصبح زعماؤها يعللون ما مضى بكونه مرحلة انتقالية في أعقاب ما تعرض له السود في أمريكا كعبيد. على أن مهمة الإسلام في أمريكا ليست من السهولة بمكان وتقول الدكتورة حداد إن المسلمين يصلون صلاة الجمعة يوم الأحد ولا يفعل ذلك إلا خمسة في المائة منهم وأن تدريس الإسلام للأطفال

صعب لانعدام المواد باللغة الإنجليزية وأن تدريسه في الجـامعـة يمر عبر أشخـاص معادين له وأن الأعياد الإسلامية ليست أيـام عطلـة وأن أغلب مواد المخـابز تحتوي على شحم الخنزير بما فيها رغيف الهـامبرغر ومـاكـد ونـالـد وأن أنواعـا من الجبن تصنع من خميرة مستخرجة من شحم الخنزير. وتقول إن القانون الأمريكي مخـالف لتعاليم الشريعة في الطلاق والنفقة والحضـانـة والزواج والإرث والتبني ممـا يجعل المسلم الأمريكي منقادا إلى مخالفـة الشريعـة الإسلاميـة وأن هـذا الأخير يعلم أن الحضارة الأمريكية المبنية على المادة-والتبذير مخالفة للإسلام الذي يجعل الإنسان خليفة الله في الأرض يصونها ويديرهـا وأن تـأكيـد الإسلام على الأخوة والتضـامن يخالفه ما يتميز به الطبع الأمريكي من فردية وأنانية.

الحلم

«لقد مرت سنوات وسنوات منذ
اقتسم مارتن لوثر كينغ حلمه مع
الذين شاركوه مسيرته إلى
واشنطون. والآن عندما نقوم بمسح
للائحة التغيير نجد أن رؤياه حول
مجتمع أمريكي يسوده العدل
والإنصاف ما تزال مجرد حلم».
إميلي روزنبورغ
(أستاذة التاريخ الأمريكي الحديث
بمكاليستر)

بنات أغنياء السود الأمريكيين قال عنهن زميلنا الإفريقي : «إنهن شر من البيض» أي أنهن معدن ترابي كما يقال، سوداوات من الخارج، بيضاوات من الداخل. ما الذي دفعه ليقول ذلك ؟ هل هناك نظرة ما ينظرها السود الأمريكيون إلى الأفارقة حتى ولو كانوا خريجي صربون مثل زميلنا ؟.

وفي مقر آيفون لمواد التجميل الاقتصادية سأل عن لون المستهلكات وقيل له : «أسود» فقال حانقا : «طبعا، إنهن يردن التشبه بالبيض».

لا يقبل أن يرى سوداء بشعر ملين أو مصبوغ والعنصرية يراها في أن تسأله صرافة بمطعم منتزه مونتانا : «هل تشتغل هنا ؟» يردد دائما : «أيام كنت طالبا

في معهد تونس للصحافة كانوا يقولون لي : إنك لا تحتاج للتدفئة» ويستنتج أن العرب عنصريون مثلما يستنتج آخرون من قول : «إنه يهودي» مشاعر ضد السامية. إنه سوء استعمال لغوي وتحمبل لفظي عنصرية ومناهضة السامية معاني لا يتسعان لها.

الفرنسي رومان كاري يستدل هو على عنصرية العرب بتجارة الرقيق ويقول في كتابه «كَلْبٌ أبيض» : «هل أنت معادي للسامية ؟» ردا على أمريكي أسود قال : «إن الإذاعات الموجهة إلى السود في أمريكا يملكها اليهود» وزاد قائلا : «إن مناهضة الأمريكيين السود للسامية تعود إلى مسرحية العروبة والإسلام التي مثلها المتطرفون السود في الستينات بحثا عن حياة أخرى». وقال : «إن 99,99 بالمائة من السود يجهلون أن العرب ذبحوا أجدادهم وخربوا دينهم وتراثهم، أنهم كانوا يحولون الأفارقة إلى الإسلام بحد السيف ويحولون الضعيف إلى خصي ويبيعونه إلى البرتغاليين والإنجليز والأمريكيين. من هنا يقول كاري، إلى إيجاد الروح الإفريقية في الإسلام مسافات ضوئية. وعندما يقول ما لكوم إكس : «كيف تريدون مني أن أحب من اغتصب أمي وقتل أبي وعبد أجدادي ؟» فإنه ينسى أن هذا هو ما يفعله عندما يرتمي في أحضان الرسول» (يقصد ألجاح الزعيم الزنجي المسلم الذي لقب نفسه برسول الله).

ويدخل كلام كاري هذا في نطاق الحملة الصهيونية على الإسلام بعدما أقبل عليه السود في أمريكا وما رومان كاري إلا فرنسي من أم يهودية روسية. سمعت هذه الفكرة أول ما سمعتها في بيت دبلوماسي بريطاني بالرباط، استغرب قائلها في هدوء انجليزي أن يكون السود قد نسوا هذه الحقيقة فقلت له : «إنهم لا يذكرون الآن إلا ما فعله بهم الاستعمار الأوروبي».

كان زميلنا الإفريقي يقول :

«العنصرية في كل مكان لكنكم لا ترونها لأنكم لستم في مكاني» ويضحك، متكلفا ونتوغل في مدن الاصطياف فتختفي سخريته ويتقلص وجهه وتعلوه القتامة ويصمت لعدة أيام أحيانا. وفي شيكاغو ملأ أروقة الفندق المشاركون في

مؤتمر الأطباء الأمريكيين السود وقلت له : «إنهم أقل منك سوادا» فقال مزهوا : «ذلك لأنني أصيل، أنا». كان سواد نساء الأطباء من قبيل ما يعرف عندنا بالسمرة. إنهن نتاج اختلاط غير شرعي تم في مزارع القطن. وجدتهن معنيات بزينتهن وشعرت اتجاههن بالألفة. كلما وجدتني في مجتمع أمريكي أسود رفع الحاجز وكف الشعور بأنني أجنبية في بلد أجنبي ووجدت في داخلي عواطف تتدفق وكأنني فوق تربة عربية.

هكذا إذن، الدم الأسود مهما كان قدره مقياس لتصنيف المرء مع السود ! ألم تثر هجرة المسلمين الأوائل الجدل حول ما إذا كان يمكن اعتبارهم زنوجا استنادا إلى حجم أنوفهم ورؤوسهم ؟. وما لبثت أن فهمت مسألة غابت عني. كنت أعرف في الرباط أمريكية طلبت تبني طفلة في بلادها. واستدعوها لتسلم الطفلة ولكن حين وصلت فوجئت بأنها سوداء ولكنها ألزمت بأخذها.

أن تفاجأ شيء معقول لأنها هي شقراء وتبنيها للطفلة سيكون باديا أما ألا يكون أمامها إلا أخذها فلم أفهمه حتى رأيت نساء الأطباء السود. إن زوج المرأة أصله من برتوريكو بمعنى أنه أسمر كعربي، لكنه كما قالت زوجته «أسود بالمنظار الأمريكي».

هذه بعض آثار الماضي المزري وحتى 1954 لم يكن الجنوب يخلو من إمكانيات الفصل بين الجنسين.

وبدأ التغيير باعتراف إحدى المحاكم بانخفاض مستوى مدارس السود فوقف الجنوب ليصف ذلك بأنه مؤامرة شيوعية على الجنس الأبيض ومحاولة لإبادته. وبعث الكوكلوكس كلان لإرهاب السود، ووضعت عريضة تحمل مائة توقيع وتوقيع في الكونغريس وتحتج على ما سمته باغتصاب حقوق الولايات، تصدى موقعوها لكل تشريع في نطاق الحقوق المدنية. وَرفض والي أركانساس تطبيق حكم المجلس الأعلى للقضاء بإنهاء الميز في المدارس الثانوية فتصدى أيزنهاور للتحدي حفاظا للدولة على هيبتها. وصدر حكم آخر يجعل تكتيك إغلاق المدارس منافيا للدستور ويطالب بإنهاء الميز في المدارس، لم يجد الليبراليون في

أمريكا مناصا من مساندتـه، ألم يكن الأولى بهم أن يلتفتوا إلى الظلم المزدهر في بلادهم قبل أن يخوضوا في أي صراع ضـد النـازيـة أو الشيوعيـة أو يسعوا لتسريب نظامهم ومؤسساتهم إلى العالم الثالث ؟. وانضم إليهم كل من رجال الدين والعلمـاء. ومورست العنصرية على الدبلوماسيين الأفارقة الموفدين في أعقاب استقلال بلـدانهم إلى أمريكا فكان في ذلك للمسؤولين إحراج وأي إحراج.

في هـذا الوقت كـانت الصنـاعـات ترحـل إلى الجنـوب وتحسن فيـه أوضـاع البيض وتزيد أحوال السود ترديا. لقد جاءت للمزارع بالآلة وللسود بالبطالة فهـاجر منهم في أواخر الخمسينـات أكثر من مليون نسمـة. وتضـافرت على الشبـاب الأسود البطالـة والغربـة لتبث فيـه روح النضـال وتـدعو لظهور المنظمـات. وبرز الزعمـاء وبدأ النداء بالكفاح فاجتمعت الجماهير حول قس شـاب من ألبـامـا يـدعى مـارتن لوثر كينغ الأصغر كان قد ذهب أبعد من تكتيك إقرار الحقوق عن طريق المحـاكم وتزعم وهو في العشرين من عمره حملة لمقاطعة وسائل النقل المخصصة للسود في مـونت كـومري. ومـا لبثت مقـاومتـه القـائمـة على العصيـان المـدني والمقـاطعـة الاقتصادية المستوحاة من طريقة المهاتمـا غـانـدي أن أصبحت أقوى سلاح في يـد حركـة الحقوق المـدنية. مثل غـانـدي كـان ينـادي بحب العـدو ويقـول : «الحب سلاحنا أمام الاعتقال والإهانة».

وفي 1957 أنشـأ مـؤتمر القيـادة المسيحيـة للجنـوب الـذي أصبح أنشـط المنظمات الجنوبية وكان مقره الكنائس وأتباعه من الطبقة السوداء المتوسطة.

حصل كينغ على الـدكتوراه بفضل مركز والـده القس في مـدينـة أطـلانطـا. وكـان خطيبـا بـارعـا يصل إلى ضمير الجمـاهير البيضـاء ويؤثر فيهـا بتركيـزه على الحب المسيحي. ولمـا استحـوذ على ولاء السـود الأمريكيين ثـارت ضـده الأحقـاد ليس في أوساط أعدائه البيض وحسب ولكن بين باقي الزعماء السود أيضا.

كان العديد من التنظيمات قد التحق بـه في أوائل الستينـات ومنهـا منظمـة الطلبة الجامعيين السود التي جاءت بعملية الاعتصـام، تلـك العمليـة التي بـدؤوهـا بالـدخول إلى مطعم في أحسن لبـاس والجلوس بكل أدب إلى المـائـدة في انتظـار

الطعام الذي لا يأتي. ورموهم بالسجائر المشتعلة وبمحتوى قنينات المشروبات والكتشاب لكنهم اعتصموا ثم انتشرت العملية وشارك فيها السود والبيض على السواء.

وفي 1960 جاءت بوادر الفرج مع الراحل جون كيندي فوعد بآفاق جديدة بعدما كان قد انتقد في حملته الانتخابية إدارة آيزنهاور وسياستها الخجول في قضية الإدماج. وما لبث كيندي أن عين سودا في مناصب فيدرالية وبث في المشاكل المعلقة ودعم قرارا ينهي الميز في الأماكن العمومية.

بعد ذلك وضع المناضلون خطة بمراحل التغيير. وفي 1961 تظاهر الشباب الأسود على القوانين المتعلقة بالنقل العمومي بين الولايات واشتبك معهم البيض فأرسل وزير العدل وهو روبيرت كيندي بفرق عسكرية لحماية المتظاهرين وطالب بإنهاء الميز في وسائل النقل العمومي بين الولايات. وفي العام التالي زاد الرئيس جون كيندي في عدد الفرق العسكرية المكلفة بالتصدي للعنف الناتج عن ولوج طالب أسود جامعة ولاية المسيسيبي والذي قتل فيه شخصان. وفي 1963 وقف جورج ولاس، الرجل الذي كان يقول : «الميزاليوم وغدا وإلى الأبد» وقف جانبا وترك وزارة العدل تسهر على سير الإدماج. واستمر العنف في برمنغهام فاستعمل عميد شرطتها خراطيم النار والكلاب البوليسية لتفريق المتظاهرين وملأ بهم سجون الولاية. وبدأ الإرهاب الأبيض فوضعت في كنيسة سوداء قنبلة قتلت أربعة أطفال وساهم ذلك في حث الرأي العام والكونغريس على إقرار الحقوق المدنية وخاطب جون كيندي الأمة قائلا : «إن عدم الارتياح الذي يتوعد الحياة الأمريكية لن يهدئه القمع البوليسي. لقد آن الأوان ليتخذ الكونغريس قرارا في الموضوع» وأكد أنه سيفعل ما في وسعه لتحقيق ذلك فقال كينغ : «إن العنف الأبيض قد أعطى نتائج في مصلحة الحركة» وطالب بالهدوء بعدما توسم تغييرات جذرية، لكن بعض السود الذين لم يكونوا يشاطرونه فلسفته السلمية واصلوا العنف. وبدأ أعضاء تنظيمه عملية «الاستفزاز السلمي» التي تستغل رد الفعل العنصري لصالح الحركة والتي أدت إلى التصويت في الكونغريس على حق السود

في الانتخاب. وفي 1963 كان العنف قد اختفى من صفوف السود أمام التضامن الذي تبلور في المسيرة إلى واشنطون.

جاءت فكرة المسيرة أثناء جولة لكينغ في أحياء السود الفقيرة بالجنوب عندما قال : «إذا لم يكن بإمكاننا إحضار الكونغريس ليرى بعينه فقر السود فإننا سنحمل هذا الفقر ونضعه أمام أنظار أغنى أمة عرفها التاريخ».

وواكبت المسيرة التي شارك فيها مائتا ألف ومجموع الحركات تغطية صحافية كبيرة تحدثت عن نظامها وحسن سلوكها وتضامنها. وخطب الخطباء فاستحوذوا على مشاعر نظارة التلفزيون. وأوشك الحماس أن يخبو تحت حرارة شمس أغسطس فأحياه كينغ بنشيده «عندي حلم» الذي أكد تأثيره السحري على الجماهير. على إثر ذلك إلتقى زعماء الحركة السوداء بالإخوة كيندي في البيت الأبيض. ولذا كان مقتل جون كيندي ضربة لحركة الحقوق المدنية فلقد حمل جنوبيا بمشاعره المتناقضة إلى البيت الأبيض وهو ليندن جونسون، لكن هذا الأخير ما لبث أن بدد الظنون عندما دعم مشروع كيندي الذي ينص على أن «الميز العرقي أو الديني أو الجنسي في الأماكن العامة كالمقاهي ومحطات البنزين والمسابح عمل غير قانوني».

وسمح للسلطة التنفيذية بسحب المساعدات والعقود من كل مؤسسة تمارسه وسمح بإغلاق ملفات القضايا المتعلقة بالميز في المدارس، ونص على أن الحد الأدنى لعدم الأمية هو السنة السادسة من الثانوي حتى لا تتخذ الأمية حجة لمنع السود من الإنتخاب.

وهكذا أقرت الحقوق المدنية عندما وجدت الدعم الكافي وأحدثت تغيرات جذرية في ذلك النظام المقيت الذي بدأ حيث انتهت العبودية فأصبح في إمكان السود أن ينزلوا بأي فندق ويأكلوا في أي مطعم ويركبوا أية حافلة في البلاد.

وفي 1964 بدأ الشباب الأسود يطالب بأكثر من ولوج الأماكن وبالتعويض عن سنوات الميز وبالمساعدة الاقتصادية وبالمشاركة في السياسة والسلطة وقال الأكبر سنا : «إنكم تطلبون المستحيل» فاتهموهم بالعمالة والرشوة لاسيما وأن بعض

المنظمات توصلت بمساعدة قدرها مليون دولار. ووصف برنامج كينـدي برمتـه بكونه رشوة للحركة. قيل ذلك إبان المسيرة. وكان أحد الزعماء واسمه جون لويس قد أعد خطابا ساخنا انتقد فيه مشروع قانون كينـدي وقال : «ماذا في هذا المشروع يضمن إنصاف خادمة سوداء تتقاضى خمس دولارات في الأسبوع في أسرة مداخيلها السنوية مائة ألف دولار» ؟ وتكلم عن «وضاعة أولائك الزعماء الذين يشيدون المستقبل على التراضيات غير الأخلاقية ويتحالفون مع ألوان من الاستغلال» لكن رفاقه نجحوا في اقناعه بالتخلي عن ذلك. وخطب رجل فقال : «من منكم رأى قبل اليوم ثوارا يضعون ذراعهم في ذراع العدو وينشدون وهم يتمايلون : سننتصر في يوم من الأيام ؟». وكان ذلك الرجل هو ملكوم إكس خطيب النضال والكرامة السوداء.

وجاءت أمطار الربيع واغرقت المسيرة في واشنطون فتخلت الأغلبية عنها وتكفلت الحكومة بإخراج الباقي. وطار بريق الشعارات من أعين الشباب عندما قتل ثلاثة مناضلين في ولاية مسيسيبي تحت سياط السلاسل اثنان منهم بيض. وفي نفس العام تأسس حزب المسيسيبي الديموقراطي الحر. وفي 1964 دعت لجنة التنسيق الطلابية السلمية السود إلى التسجيل في الانتخابات. وفي 1965 أدى اشتباك بين شرطي وسائق أسود إلى اضطرابات حي السود في لوس انجلس التي دامت أربعة أيام وتدخل فيها الحرس الوطني وأسفرت عن مقتل أربعة وثلاثين وخسائر قدرت بعشرين مليون دولار. وتواصل العنف حتى عم في 1967، 128 مدينة على رأسها دترويت. وكان أكبر قدر من الخسارة من نصيب السود وأظهرت التحقيقات أن الشرطة كانت تطلق النار كيفما اتفق وأن بعض القتلى ذهبوا ضحية اغتيال. وانتهت الاضطرابات فخلفت الكراهية وعدم الارتياح لدى أنصار الإدماج من البيض. ألم يكن التطور في أوجه ؟ فلما إذن كل هذا الدمار ؟. وتأرجح التفسير الرسمي بين «مؤامرة ثورية كبرى على الاستغلال الرأسمالي» وبين فعل الـ riff raff (الأوباش) وهو تفسير جاءت به اللجنة التي ترأس تحقيقاتها ماك كون رئيس المخابرات. وذكرت هذه اللجنة أن الذين بدؤوا أعمال العنف مشاغبون

حديثو العهد بالمدن ولكنها لم تذكر ما يرزح تحته حي السود من فقر لأن به شوارع واسعة ولا أشارت إلى ضيق سوق العمل الجماهيري وضعف التعليم المخصص للسود. واعتبرت تقارير لجن أخرى ما حدث احتجاجا سياسيا وليس مجرد اضطرابات نظرا لكثرة المشاركين فيه واستدلت على فقر الحي بمساكنه المتداعية وذكرت ما يعاني منه سكانه من استقلال وقمع على يد الشرطة وخلصت إلى القول بأن الحوادث نابعة من هموم متأصلة. وزادت اللجنة الوطنية الاستشارية التي تشكلت بأمر من جونسون أن من الأسباب عنصرية البيض. ووضعت هذه اللجنة تقريرا تحت عنوان : «حصاد العنصرية الأمريكية» تم الاستغناء عنه وتعويضه وإعفاء المسؤولين عنه من الخدمة وعددهم مائة وعشرون ونصت الوثيقة الجديدة على تقديم المساعدة للسود وتقوية جهاز الأمن فاختير الحل الثاني ووافق الكونغريس على الزيادة في الاعتمادات المخصصة لتقوية الوكالات المحلية التي تسهر على تطبيق القانون وتدريب الحرس الوطني على السيطرة على الاضطرابات ولكن الرئيس تركها جانبا لأنه أعطى الأسبقية لاعتمادات حرب فيتنام.

أما المسلمون السود فقد برزت جماعتهم بسرعة وكانت تنادي بأفضلية السود ومؤسساتهم وتتنبأ بانهيار المجتمع الأبيض ومبادئه القائمة على الفصل بين الناس. وكان مالكوم الصغير قد التحق بها بعدما إعتنق الإسلام فغير اسمه بحرف إكس الذي ينطق EX في الإنجليزية ويعني سابقا. أي ملكوم، المسيحي سابقا، العبد سابقا وأصبح الذراع الأيمن لمحمد ألجاح وزعيم المنادين بعدم الإدماج. وأسلم بطل الملاكمة في الوزن الثقيل كازيوس كلاي وأصبح محمد علي كلاي فجاء لجماعة المسلمين السود بشهرة واسعة. وبدأ مالكوم إكس يسخر من فلسفة مارتن لوثر كينغ ويقول : «إن مسوكم ابعثوا بهم إلى المقبرة». «علينا أن نتضامن ونطور مجتمعنا ليصبح جميلا ومرضيا ويغنينا عن مجتمع يلفظنا» لكنه ما لبث أن انفصل عن ألجاح في 1963 وبنى له مسجدا. وفي العام التالي أدى فريضة الحج واعتمد المذهب السني وأصبح الحاج مالكوم، وفي 1965 أسس منظمة الوحدة الآفرو

أمريكية وأصبحت قضيته هي قضية العالم الثالث وبدأ يتكلم عن تحالفات مع جماعات بيضاء وسوداء وانتهت حياته بالاغتيال في هارليم، حي السود بنيويورك فأقبل الشباب الأسود المتطرف على قراءة سيرته وإجلاله حتى قال عنه أحد أعضاء منظمة النمر السود «لقد بدأ تاريخ السود في أمريكا مع مالكوم إكس».

وفي 1966 دعت اللجنة الوطنية الطلابية إلى إنشاء مؤسسات حرة سوداء سياسية وثقافية واقتصادية تكون قاعدة للتغيير. وبرز ستوكلي كَارْ مَايْكَلْ ليثبت أن حركة الحقوق المدنية تعيش حالة انقسام، وأقسم أنه لن يدخل السجن سلميا أبدا وأن بنايات المحاكم في المسيسيبي يجب أن تحرق للتخلص من القذارة وأن العنف الأسود أمريكي كتورتة العنيب وأورد شعاره الشهير Black Power (السلطة السوداء). واشتكى جيل الزعماء الأسبق من الأهمية التي أعطاها الإعلام لكار مايكل وأتباعه فقال : «إن شبكات التلفزيون تزج بالميكروفونات أمام كل من يرفع عقيرته بالبلاك باور أو بأحرق يا صاح، أحرق». والحقيقة أن الثائرين الجدد لم يكونوا يكتفون بالشعارات، ثم إن الطرق السلمية أثبتت عدم جدواها «إن سعينا للإندماج» يقول كار مايكل «يثبت اعترافنا بأفضلية البيض». كانت فكرة المساواة القانونية والسياسية قد أصبحت متجاوزة فأصبح ما يريده الثوار الجدد سلطة اقتصادية تقوم على التخلص من البنية البيضاء بما فيها «غش» رجال الأعمال و«جشع» أصحاب العقار و«إلتواءات» رجال السياسة حتى يتحكم السود في مجتمعهم ويتسنى لهم البحث عن هوية حضارية قائمة على التراث الآفروأمريكي، لن يوصلهم إليها إلا تسييرهم لمدارسهم وتنشيطهم للدراسات الخاصة بهم. وحيث إن هذا المبدأ يتنافى مع مبدإ الوطنية أصبحت هناك إشكالية عويصة.

وتكلم البعض في إطار الانتماء الإفريقي عن وضع المستعمر الذي يعيشه الأمريكي الأسود وطبق البعض النظرية الماركسية فتكلم عن استغلال السود في المجتمع الرأسمالي الأمريكي ولجأ آخرون إلى التطرف فتكلموا عن ثورة تشفي الغليل ولا تبقي ولا تذر وأورد آخرون التروي والبدء بإقامة الأسس قبل إقحام الحركة في أي تغييرات جذرية.

وجاءت حركة النمر السود في أواخر الستينات. أنشأت في أوكلاند، كاليفورنيا واتجهت نحوها الأنظار بعدما تبادلت إطلاق النار مع الشرطة. استعارت اسمها من حزب أسس في ألباما ولم يعمر، كان أعضاؤه يرتدون اللباس العسكري ويرهبون السود. وطالبت بمدخول لكل مواطن وبناء مساكن للسود وتعويضهم عن شغل أيام العبودية وإطلاق سراح السجناء وإعفاء السود من الخدمة العسكرية.

ومع الأيام لم تعد هذه الحركة ترى تناقضا بين السلطة وقبول أسس النظام الأمريكي فبدأ السود يدخلون العديد من المؤسسات الإنتخابية وبدأت الأصوات تأتيهم من البيض أيضا.

وجاء آخر الحقوق المدنية في نفس العام الذي قتل فيه مارتن لوثر كينغ ليمنع الميز في الإعلان والتمويل والبيع والكراء ويحمل السلطة التنفيذية مسؤولية تحقيق الإدماج في السكن. كانت حركة السلطة والكرامة السوداء قد عمت البلاد وشملت البيض والسود حتى كنت لا تسمع إلا بلاك باور حيثما وليت وجهك ولا ترى إلاَّ التسريحات الإفريقية التي خاف البعض منها على النمط القائم وتقبلها البعض كتعبير عن إثبات الذات. ثم ظهر للوجود شعار آخر هو Black is beautiful (اللون الأسود جميل) مع أمل أن يفك عن أمريكا قيد أفكارها المسبقة.

وبعد موت مارتن لوثر كينغ ذهبت الحركة السوداء كل مذهب فتفككت منظمته وباقي المنظمات ثم حاول أنصار السلطة السوداء بعد ذلك بأربع سنوات تأسيس منظمة جديدة وقالوا : «لا أمل في أن يقدم السياسيون البيض أي تغيير حقيقي» وأن «أزمتنا كسود نتيجة حتمية في مجتمع قائم على العنصرية البيضاء والرأسمالية البيضاء» لكن المنظمة الجديدة ظهرت فيها اتجاهات أدت إلى الإنشقاق مرة أخرى وجعل ذلك مانينغ ماريبل وهو شخصية سوداء يقول : «لقد فقدت الجماهير كل اهتمام بالحركة بينما كانت منهمكة في الجدل في نظرية التغيير». وحدت إدارة نيكسون حدو الجماهير السوداء فلم تبال بهذه الحركة. واتهم نيكسون بعدم إعطاء الدفعة اللازمة للموجود تحت يده من الحقوق المدنية واستقال رئيس قسم الحقوق المدنية في شؤون الصحة والتعليم ومساعدة المحتاجين عندما عارض

نيكسون نظام النقل بالحافلات وهو نظام يهدف إلى نقل أبناء السود بالحافلات إلى المدارس الحكومية في أحياء البيض للقضاء على الميز العنصري. واتضح خلال سنوات نيكسون ـ فورد أن الهوة بين مداخيل البيض والسود ازدادت اتساعا وأن الإدارة لم تمهد للسود في الجنوب تسجيل أسمائهم في اللوائح الإنتخابية وأن محاولات الإدماج وصلت إلى الطريق المسدود وأن العمال السود لاقوا الأمرين على يد النقابات بإيعاز من تهويل الجهات الرسمية والإعلام.

ورغم دخول 15 نائبا أسود إلى الكونغريس وانتخاب أربعة سود لرئاسة مجالس بلدية فإن التغيير المرتجي لم يأت. لقد انتخب أربعة رؤساء مجالس بلدية ولكن أين ؟ في مدن سوداء ؟. فلم يصلوا إلى مصادر التمويل العام والخاص، فأي انتصار إذن ؟. لم يلبث الأمل أن خاب حتى في هؤلاء بعدما اتهم رئيس بلدية دترويت بالولاء للمؤسسات ولسياسي البيض لأنه وافق على بناء المركز التجاري للمدينة بأبهض التكاليف في حين كان منتخبوه السود يقاسون من الفقر والبطالة فبدأ السود يمتنعون عن التصويت.

لقد أصبح بالإمكان دخول الأعمال ولكن على اللوائح القانونية التي سهر الكونغريس على وضعها. نعم هناك طبقة سوداء متوسطة ظهرت للوجود من قبيل الأطباء الذين رأيناهم في شيكاغو لكنها أقلية الأقلية أما الأغلبية فتعيش أسفل سافلين وتأتي في المؤخرة في كل شيء، الشغل والأجور والتمدرس والسكن وتعيش تحت العتبة المقررة للفقر، أي أنها ما تزال تعيش أوضاع الميز الذي ألغاه التشريع بعد كل هذه النضالات والمسيرات والاضطرابات.

ومن الشخصيات السوداء المرموقة حاليا أندرو يونغ السفير الأمريكي السابق لدى الأمم المتحدة. استقبلنا في مكتبه ببلدية أطلانطا التي يرأسها وقال عندما عرف أنني مغربية : «كنت أفضل صديق للمغرب حتى التقيت بالبوليزاريو». ولعله فقد صداقة الشعب المغربي أيضا وأحل الالتباس في مشاعره هو الذي كان أول أمريكي بعد كيندي يحظى بالمودة ولربما الحب في قلبه وقلوب العالم الثالث وموقفه هذا لم تصححه مخاطرته بحياته الدبلوماسية بمقابلته أحد الزعماء

الفلسطينيين، تلك المقابلة التي أدت بالصهيونية واللوبي الإسرائيلي إلى الضغط على كارتر لحمل يونغ على تقديم استقالته ووترت العلاقة بين السود والصهيونية في أمريكا. وقد عمد جيسي جاكسن من جهته إلى مقابلة ياسر عرفات فانتقده فرنان جردان وقال : يجب ألا نخاطر بعلاقاتنا مع اليهود بمغازلة إرهابيين لا يهمهم إلا القضاء على إسرائيل ولكنه وجد نفسه يردد نغمة نشازا عندما احتد عليه السود لانتقاده زعيما أسود وانحيازه للصهيونية.

وجيسي جاكسن هذا رجل دين وزعيم يود أن يكون خلفا لمارتن لوثر كينغ في زعامة الحركة السوداء بعدما عاش معه على غرار يونغ مراحل النضال وشهد مقتله وورث عنه براعته في فن الخطابة. استقر في شيكاغو بعد مقتل كينغ وأسس P.U.S.H (الناس المتحدين لخدمة الإنسانية). يهدف إلى إقناع السود بالتسجيل في اللوائح الإنتخابية ويقول : «ما الحاجة إلى الإضراب ؟ إن مصيرنا سيتغير بصناديق الاقتراع لا بالثورات». وهو يهدف إلى بعث الكرامة والوعي السياسي في الشباب الأمريكي الأسود ويحثه على التعليم. استطاع منذ 1980 أن يوقع مع شركة كوكا كولا وغيرها اتفاقيات تلتزم بمقتضاها بتشغيل السود والإعلان في إعلامهم مقابل عدم مقاطعتهم لموادها. أحيا الاهتمام السياسي لدى السود. يقول في تجمعاته : «نحن في حاجة إلى الموظف والمراقب وعميد الشرطة والقاضي والمشرع والوالي. ترشحوا إذن، ترشحوا». ويقاطعه الجمهور منشدا : «رشح نفسك يا جيسي، رشح نفسك» أي لمنصب رئيس الولايات المتحدة في انتخابات 1984 فيرد عليه : «قد تخسر ولكنك إن لم تترشح فأنت خاسر لا محالة».

وهكذا أصبح مضمون النضال الأسود معه هو التسجيل والترشيح لتعديل الميزان السياسي في القرية والولاية والاتحاد الفدرالي. جاكسن هذا، أو جيسي كما يسميه الجمهور رجل مسرح بالمعنى الأمريكي. حضرت وعظه صبيحة يوم أحد بكنيسته في شيكاغو وخرجت بهذا الانطباع. كان هناك بيانو وكورال محترف ودخل دخلة مسرحية تصاحبه الموسيقى وأنشد :

«أنا شخص.

قد أكون فقيرا». (فرد عليه الجمهور) :

«ولكنني شخص».

«قد أكون جائعا.

قد أكون مسجلا في برنامج المساعدة الاجتماعية.

قد أكون أميا».

وبين كل جملة وجملة يتدخل الجمهور ليقول :

«ولكنني شخص».

وعندما يتكلم هو، يكون صوته هادئا فإذا تأكد أنه أصاب الهدف رفعه في حماس قائلا :

«قد أكون مسجلا في اللوائح الانتخابية»

فترد القاعة في هدير :

«ولكنني شخص».

نعم، وصل السود إلى حد المطالبة بمنصب رئيس الجمهورية ولكن هناك من ما زال يقول : «سنعرف كيف نتخلص من قوانين الحقوق المدنية ونظام نقل أطفال السود في الحافلات». وهؤلاء هم أعضاء الكوكلوكس كلان، المنظمة الإرهابية التي تأسست في أعقاب الحرب الأهلية للإنتقام من السود الذين سولت لهم أنفسهم ممارسة الحرية. يلبس أعضاؤها قميصا طويلا أبيض له غطاء يخفي الرأس بحيث لا تظهر إلا العينان من ثقبين واسعين. رمزهم الصليب الذي يحرقونه في حدائقهم إشارة إلى مسيحيتهم المزعومة. إن العنصرية في رأيهم والإرهاب والكراهية مبادىء تبررها البروتستانتية. وأغلب أعضاء هذه المنظمة يترددون على الكنائس بانتظام أيام الأحد والعديد منهم رجال دين يمارسون مهاما من مختلف الدرجات داخل الكنيسة.

هل المسيحية هي إحراق الصليب وضرب قس أسود تجرأ ودخل مطعما للبيض ؟ كيف يتآمر أشخاص وفي قلب الكنيسة على وضع قنبلة في كنيسة أخرى لأن الذين يترددون عليها لونهم أسود ثم يعودون صبيحة يوم الأحد إلى نفس

المكان ليعبدوا الله ؟ لقد ورث هؤلاء تقليدا إرهابيا أعمى يجتمع تحت لباسه الأبيض رجال ونساء وأطفال، نعم وأطفال. كيف يتحد الناس داخل تنظيم أهدافه غير ديموقراطية في بلد ديموقراطي وينطلقون لممارسة نشاطهم ويعلنون عن عناوينهم بإحراق الصّليب في حدائقهم دون أن تتحرك السلطة ؟.

لقد رجع الزمن الأمريكي إلى الوراء ووجد السود أنفسهم بلا سند فريغن لم يحصل إلا على 5 ٪ من أصواتهم ولذا يعتبر نفسه في حل من أمرهم. لقد تخلى عن العديد من البرامج الإجتماعية التي كان الزعماء السود يرون أن هوة الفرق لن تسد إلا بها ودخل العديد من مكتسبات الحقوق المدنية في طي النسيان حتى أعلنت وزارة العدل أنها لن تتابع من يمارسون الميز في المؤسسات أمام المحاكم.

وسمح ريغن للجنة المكلفة بالنظر في تكافىء فرص الشغل أن تعقد أشغالها بدون رئيس طيلة سنة كاملة ناب عنه خلالها رجل أسود غير كفء حتى قال السود أنفسهم وهم الذين يأنفون من انتقاد السود : «اللهم إن هذا لمنكر !».

وتبين من استطلاع للرأي أن العديد من الأمريكيين يعارضون مساعدة السود بأموال وبرامج وأنهم يعتقدون أنهم قد أنصفوا بما فيه الكفاية عندما أقرت قوانين الحقوق المدنية.

السود يقولون إن الميز ما يزال قائما في الشغل والسكن وأنهم يعيشون أوضاعا تزداد صعوبة والزعماء السود يصفهم البيض بأنهم في وادي وجماهيرهم في وادي. ألم يرحلوا من أحياء السود من زمان عرفت هذه الأحياء بعده تغيرات جذرية ؟.

رحم الله الزعيم المسلم الأسود مالكوم إكس. كان حاد البصيرة عندما انتقد سياسة مارتن لوثر كينغ وفلسفته وقال : «فعلت ما لم يفعله أحد. أنهيت الفصل في المقاهي والحافلات والمراحض لكن ذلك لم يكلف هذه البلاد شيئا كما لم يكلفها أن تمنحنا حق الانتخاب، أما إنهاء فقر المواطن الأسود فهو يكلف عشرات الملايير من الدولارات وأنا لا أرى كيف ستصل إلى ذلك بإيقاظ الضمائر وحسب».

«لقد مرت سنوات وسنوات، تقول إميلي روز نبورغ، منذ اقتسم كينغ حلمه مع من شاركوه مسيرته إلى واشنطون وعندما نقوم بمسح للائحة التغيير نجد أن رؤيا كينغ حول مجتمع أمريكي يسوده العدل والإنصاف ما تزال مجرد حلم».

طريق المعاهدات المحروقة

«لقد بكينا الدم طوال السنين
تعالوا نمسح دموعنا
ونتعلم رقص وأغنيات دوْرة الحياة
فغدا يشرق مع الشمس وعدنا المقدس
والمستقبل المحجوز للأطفال.
إننا نملك روح الجمال الأبدي
الكامنْ في الأمل المصوغ بالعمل
والآن هيا نرمي حربة الكراهية».
الشاعر الهندي بيتر بلو كلاود

عندما وصلنا سانتافي، عـاصمـة نيو مكسيكو في أوائل نوفمبر وأواخر الرحلـة كنا قـد قطعنـا آلاف الكيلومترات عبر شبكـة طرق سيـارة وجسور مهيبـة، هي في حد ذاتها دليل على غنى هذا البلد الفاحش. «يا للحظ الوقح !» كما يقول أحـدهم «كل هذه الرفاهية النـابعـة من الأرض المسروقـة !». على أننـا كنـا أحيـانـا نسلـك الطرق الثانوية للتملص من الطريق السيار وسلسلة مطاعمـه وفنـادقـه الاقتصـاديـة ومحطات بنزينه ومراكزه التجارية في الشكل الأمريكي الموحـد الـذي لا بـد وأن ينتهي الطريق إليه في مداخل المدن.

الطريق الثانوي له مميزات حفظت منهـا عن ظهر قلب صهبـة وصفرة أوراق الخريف التي تتلألأ في ضوء النهار داخل المناطق الغابوية وتختلـط بصفرة شعـاع

الغروب ونضارة العشب في مداخل البيوت ثم المزيد من ألوان الخريف داخل المزيد من الغابات.

لسانتافي طريق ثانوي يقود إليها لكننا دخلناها من طريقها السيار. إنه أقصر مسافة. بدأت المسافة تعنينا بعدما ظهرت علامات التعب وتجسدت في حادث داخل البعثة. لا أحد يعرف مثل المسافر ما للعلاقة بين رفاق السفر من أهمية.

كيف يصل اثنان من نقطتين على الكرة الأرضية، لم يكن أحدهما يعلم بوجود الثاني قبل البرنامج إلى هذا الحد من الكراهية ؟. كنا قد أنزلنا أمتعتنا في فندق ما بمدينة ما والوقت ليلا. وقيل لنا إن على البعض أن يتحول إلى فندق قريب. كانت حقيبة (ن) قد تكسر قفلها فطلب من أحد زملائه، وكان ممن وجدوا له غرفة أن يحفظها عنده ورفض فجن جنونه ورمى بها في البهو مفتوحة وهم بالخروج وعند الباب سمع عدوه (م) يضحك خلفه مباشرة فاستدار وصفعه بظهر يده وخرج وخرج الآخر في أثره وتعاركا على الرصيف بكل عنف تراكمات الأشهر الخالية. وحشر المسؤول نفسه بينهما ووقف ثلاثتهم يرتجفون. وبعد حين طلب منهما أن يتصافحا. ومرزمن ومد (م) يده لكن الآخر مضى ينظر إليها، ممتقعا متصلبا ثم بصق على الأرض واستدار ودار (م) حول نفسه وفرك رقبته وازداد امتقاعا. وتدارك (ن) ورجع ومد يده فمضى الآخر ينظر إليها ثم مد يده ولكنها كانت مقبوضة. في حياتي لم أر صورة للكراهية بهذا الشكل. لذلك لم أهتم أن ندخل سانتا في عبر أي طريق. كان كل شيء قد أصبح منكرا. الأرض صحراء، غبراء، والجسور قبيحة، حتى ألوان الخريف فقدت جمالها. إن الجمال ليس في الأشياء بقدر ما هو في استعدادنا لتقبله. ومررنا فوق جسر حديدي من تلك الجسور الأمريكية القديمة وخطر ببالي أنه ليس من هذا العالم وأن مرورنا فوقه في هذه اللحظة وبهذه السرعة حقيقة مارقة لن يبقى منها بعد حين أي أثر. وكذلك مجموعتنا، فكيف تستوعب كل هذا القدر من الكراهية ولماذا وما الفائدة ؟.

في سانتافي انعزلت وهمت في الطرقات، ولأنها مدينة هندية أحببتها. أحببت طابعها القروي وبيوتاتها المصبوغة بلون مراكش. ومع أنها ذات صبغة هندية وتسكنها أغلبية من الأمريكيين ذوي الأصل المكسيكي إلا أن الذين يهيمنون على اقتصادها هم الأنجلو أمريكيون. يملكون الفنادق والمطاعم والمتاجر وكل شيء. أما الهنود فيعرضون في البرد على خرق فوق أرض أروقة الساحة العمومية، وهم متلفعون بأغطية صوفية، عقودا وأقراطا وأحزمة وأسورة وخواتم من الفضة والفيروز ليست في جودة منتوجات شركة باكرد التي تبيع مجوهراتها الهندية في المتاجر الفاخرة المحدقة بالساحة. وبرغم ذلك ورغم البرد زوحموا حتى في هذه الأروقة ووصلت قضيتهم إلى المحكمة وحكم لصالحهم. تعرفون لماذا ؟ لأن متحف نيو مكسيكو قال إنهم امتداد له بوصفهم جزء من طابع وتراث المنطقة.

زرت الطاووس وكانت من أكثر ما رأيت تأثيرا. إنها قرية هندية. كانت خالية أو تكاد. عبرها طوال مدة الزيارة فتيان لهما ضفيرة وفتاتان في زي الهنود كاملا وعجوز بغطاء من الصوف وتصورت إحدى عجائز إملشيل. هندامها وبرودة الجو ونقاء الهواء والجبال المكللة بالثلج وخرير الماء الصافي في النهر الضحل الذي يعبر ساحة القرية وعليه عوارض خشبية بمثابة قناطر، كل ذلك جعلني أحل إحدى عجائز إملشيل محل العجوز الهندية. ووجدت أكثر من شبه بين الهنود الأمريكيين وبربر المغرب، الحلي والفخار وأغطية الصوف وبيوت الطين. بيوت الطين بالخصوص هي هي. نفس البناء، حتى حزام الجير الذي يؤطر النوافذ الصغيرة. وفي اليوم التالي قال لي هندي دخل الإدارة الأمريكية ولبس الجينز وتكهن بأنه سيكون علينا في مستقبل الأيام إذا أردنا رأية الهنود أن نبحث عنهم في المتاحف (كما حدث للبقر الوحشي الأمريكي ؟). قال لي إن البيوت الهندية مستوحاة فعلا من جنوب المغرب وأن مغاربة في الجيش الإسباني حملوها إلى نيومكسيكو. ومهما كان من أمر تكهنه فيما يخص انقراض الهنود فإن المرء لا

يملك إلا أن يتساءل إلى متى المقاومة وهم محاصرون من كل جانب بتوسع تكنولوجي واقتصادي وثقافي أمريكي مجنون ؟.

كثيرون ذهبوا إلى الجامعات واشتغلوا في المدن ولبسوا قبعات الكاوبوي وساقوا سيارات اللاند روفر واعتنقوا المسيحية. مسألة المسيحية هذه شغلتني ولم أفهمها. وقلت لأحدهم في محمية البحيرة الحمراء بمنيسوتا : «الرجل الأبيض الذي مارس عليكم كل أنواع القهر، المسيحية التي اعتنقتموها تلك، ديانته».
ولم يقل شيئا أما عن التفتح على الحضارة الأوروبية فهو في رأيه لا يمنع من العودة إلى المحمية وممارسة الرقصات الدينية والدنيوية والطقوس والتكلم بلغة القبيلة. وقال لنا عميد كلية سانت جون المسيحية في شمال مينيسوتا وأكد قول الهندي : «جاءتنا جماعة من الطلبة الهنود وقضت بيننا ستة أسابيع، في النهار كانت تحضر المحاضرات وتغدو وتروح وفي الليل كانت تحيط بطبل وتمضي في بوم، بوم، بوم».

كان أول لقاء مباشر بهم في محمية البحيرة الحمراء. لا أدري لماذا كلما رأيت الهنود الأمريكيين أصابني الكرب وظللت طوال مدته أسائل نفسي : كيف يعيش الأنجلو أمريكيون وفي ضميرهم كل هذه المأساة ؟ وأسائل من تجمعني به الظروف. أحدهم وهو أمريكي أبيض. قال لي : «ألم يغز العرب أنفسهم العديد من الأمم ؟» قلت : نعم. لكنهم تزاوجوا معها وامتزجوا بها وعاشوا وإياها جنبا لجنب في وئام، في مساواة، في أخذ وعطاء، في ظل الإسلام. لم يمحوها من على وجه الأرض بدعوى الهمجية».

دخلنا محمية البحيرة الحمراء عن طريق أحد سكانها وهو طالب سابق في مكاليستر. كانت عبارة عن أرض غابوية مبعثرة فيها بيوتات من ألواح، مرمية بالقرب منها النفايات وحطام السيارات. أراضي لا تصلح لشيء وغابات من أشجار غير نافعة.

واستقبلنا خريج مكاليستر على عتبة بيته الخشبي البسيط. برغم شهادته الجامعية لا يفعل شيئا. ليس ثمة ما يفعله. إنه يعيش مما يعيش منه قومه،

التعويض عن البطالة الذي تدفعه الدولة الأمريكية. له طفلان شقراوان بسبب الدم الأبيض من جهة أمهما. يرتديان مثل أبويهما سراويل جينز وقميصين قطنيين مكتوب عليهما Indian and Proud (هندي وفخور). يدهشني دائما أن أجد هنديا في بنطلون جينز.

كم كانوا في البداية ؟ قال مضيفنا : «اثني عشر مليونا». وقدرتهم الإحصائيات في بداية القرن بمائتين وخمسين ألفا والأرقام ناطقة بحجم المذبحة. في أغاني البيض كانوا يتحدثون عن الهندي الفاني.

قضت عليهم التفرقة فهم في عددهم الحالي مقسمون إلى مائة قبيلة وأربعمائة محمية. كانوا يتقاتلون فيما بينهم عندما يتوقفون عن مقاتلة الرجل الأبيض، وهم إلى الآن يتقاتلون بالكلام. قال لنا رئيس مجلس قبيلة نافاهو في ويندووروك : «إن ضعفنا في انقسامنا وعداوتنا. قبيلتي إلى الآن ما زالت تتنازع على الأرض مع قبيلة الهوبي. جربنا برلمان الهنود الأمريكيين وفشل. لم يكن بقدرتنا أن نتفق على نقطة واحدة». وقضى عليهم السلاح الأوروبي. قال الجنرال شارمان : «ليس هناك هندي طيب إلا وهو ميت». وقضت عليهم المعاهدات التي وقع منها البيض ألفا وخرقوا ألفا. وهذا ما جعل هنديا أمريكيا ينشر في أعقاب نزول أول إنسان على القمر صورة كاريكاتورية لصحافي أمريكي يسأل عجوزا هنديا : «مع افتراض وجود كائنات على القمر، ماذا تود أن تقول لها ؟» فيجيب العجوز : «إياكم أن توقعوا مع هؤلاء الأمريكيين شيئا». وقضت عليهم الحرب البكتيرولوجيا بعدما جمعوهم في معسكر بيت بأكلاهوما ووزعوا عليهم أغطية ومناديل أنف واردة من مستشفى كان يعالج فيه مصابون بالجذري. وقضى عليهم الزكام الذي جاءهم به الأوروبيون ولم تكن لهم مناعة ضده حتى قال بنيامين فرانكلين أب الدستور الأمريكي : «يجب أن نعتبر الزكام منة من السماء لاستئصال هؤلاء المتوحشين وترك الأرض لمن يحرثها» ثم دفعوا بمن صارعوا الموت في اتجاه الغرب بعدما اشتروا منهم بثمن بخس أراضي لم تكن أموال أوروبا كافية لأداء أثمانها فقال الكاتب الفرنسي أليكسي دو توكفيل في 1848 : «لقد رحل الهنود نحو قفر جديد

لن يتركهم فيه الرجل الأبيض في سلام». وأشار الجنرال شردان بإبادة البقر البري الأمريكي الذي كان مصدر عيشهم ولباسهم ومسكنهم.

ومرت ثلاثة قرون من المعارك لم يربحوا فيها سوى معركة واحدة كانوا خلالها يقتلون كالماشية وما بقي منهم وضع في محميات وهي أراضي حجزت لهم، كانت في البداية عبارة عن سجون. انقلب معناها الآن وأصبحت أراضي هندية في ملك القبائل تحت حماية الحكومة الأمريكية وأصبحت المحافظة عليها من مطالب الهنود الأساسية بعدما كان يراد منها في الأصل أن يمحوا فيها وبسرعة. فيها ودعوا أهدافهم الأساسية من حرية وانسجام مع الطبيعة وتركوا خيامهم وسكنوا بيوت الخشب الحقيرة التي أصبحت مرتعا للأوبئة والمجاعة والفراغ والخمر والحجز والحزن هم الذين كانوا ينطلقون بخيلهم مع الريح ولا يعرفون لأرض الله الواسعة حدودا ولذلك انتشرت بينهم البطالة والطلاق مما جعل كاتب الدولة في الشؤون الداخلية يقول في 1983 على إحدى قنوات التلفزيون : «إذا أردتم معاينة فشل الشيوعية لا تذهبوا إلى روسيا ولكن تعالوا إلى أمريكا وانظروا إلى المحميات». وباعتبار الشيوعية على لسان مسؤول أمريكي سبّة شنيعة فإن قوله اعتراف رسمي بما يزدهر في محميات الهنود من بؤس مثقل بآثام الماضي.

والمحمية لا تعيش تقريبا إلا من الاعتمادات المخصصة لها عن طريق مكتب شؤون الهنود وإعانة العاطلين التي توزع على السكان آخر كل شهر.

في اعتقاد الأمريكيين أنهم الأمة الغربية الوحيدة التي لم تستعمر أحدا وعندما يتكلمون عن الأمبريالية يقصدون الأمبريالية السفياتية لكنهم يسمون الهنود Natives (الأهالي) مثل ما كان الإنجليز والفرنسيون يسمون شعوب المستعمرات. ولم يبدأ المؤرخون الأمريكيون في التكلم عن الغزو إلا مؤخرا.. وحيث إن العلاقة بين الجانبين بدأت بالمعاهدات فمعنى ذلك أنهم كانوا معترفا لهم بالسيادة بغض النظر عن أن المعاهدات لم تكن إلا وسيلة لأخذ النفس للإنقضاض من جديد والتوسع في حروب حدود تختلق لها الأسباب.

وهكذا قام التاريخ الأمريكي منذ بدايته على التوسع والعنف وإخضاع أناس آخرين يعتقد أنهم أقل مرتبة وكراهية أناس آخرين لهم لون مخالف. كانت كراهية الهندي هي التي تذكي الحماس للحرب وقد عادوا فأحيوها في حرب فيتنام حيث كان الجنود الأمريكيون يسمون الفيتكونغ هنودا.

عندما وضعهم الأمريكيون في محميات وأعطوهم الحكم الذاتي أعطوهم حكومة مماثلة لحكومتهم على شكل مجلس القبيلة الذي يستغل فيه الرؤساء النفوذ لاستعمال موارد المحمية لحسابهم. وعندما نعت كاتب الدولة في الداخلية المحميات بالشيوعية فسر ذلك بكونها توجد فيها على الصعيد الفدرالي أعلى نسبة من البطالة والسكر والطلاق وقال : «إن المسؤولية تقع على رؤساء المجالس الذين من صالحهم أن يظل الهنود على حالهم حتى تتسنى لهم المحافظة على مراكزهم». على أن الأمريكيين لم يفعلوا شيئا لتغيير الوضع. لقد أرادوا أن يحولوهم إلى مزارعين في أراضي غير صالحة للزراعة هم الذين يجهلون الزراعة وتقنيات الري لتخصيب الصحراء فتركوا المشروع جانبا واستسلموا للخمول.

كيف صارعوا الفناء الذي تنبأت لهم به الأغنية ومخططات دولة عظمى فعمروا المحميات ليصبحوا في 1984 مليونا وثلاثمائة ألف ومشكلة من جديد ؟. لقد فطن البيض لذلك فوضعوا سياسة الإدماج لإذابتهم، أليست أمريكا بالـ «Melting Pot» (آنية تذويب) وكانت الخطة هي إيفاد بعثات مسيحية إلى المحميات والقضاء على لغات القبائل وفرض الإنجليزية ووضع الأطفال في داخليات مدة ثمان سنوات لا يرون فيها أبا ولا أما ولا قريبا من المحمية وقص شعرهم وبث شعور الممنون عليه فيهم والذي ما يزال جرحا في النفس الهندية. كانوا يضربون الأطفال في المدارس ليتكلموا الإنجليزية ويعطوهم أسماء أوروبية لأن المعلمين يجدون صعوبة في نطق أسمائهم وفي النهاية صنعوا منهم أوروبيين مزورين. وفشلت الخطة فتركوها إلى حين. ذلك أن إدارة آيزنهاور وضعت سياسة هندية وافق عليها الكونغريس في 1953 تطالب الحكومة بإنهاء المحميات وإعطاء الهنود كل الحقوق والامتيازات الممنوحة للمواطنين. وكانت هذه السياسة تهدف

إلى إنهاء التبعية الهندية للحكومة الفدرالية والقضاء على المحميات والسماح للولايات بتطبيق قوانينها على الهنود. ووضعت الحكومة في نطاق ذلك برنامج الترحيل لجذب الهنود نحو المدن. وكان البرنامج يدفع لهم مساعدات مالية إلى أن يشتغلوا. ونجح في ترحيل ستين ألف هندي إلا أنهم لم يتأقلموا فرجع خمسة وثلاثون في المائة منهم إلى المحميات. وتقول بعض الدراسات إن النسبة كانت ستصل إلى خمسة وسبعين في المائة لو كان في المحمية فرص للشغل. كان الهنود ضد هذا البرنامج لأنه يقضي على التراث الهندي بالقضاء على المحمية واضطرت الحكومة إلى عدم تطبيقه بالإكراه حتى أصبح مع الأيام مستهجنا. ذلك أن الصمود أو «العناد» الهندي صمود لا مثيل له. كيف استطاعوا أن يحولوا هذه المحميات الموبوءة من سجون إلى معاقل ؟ من مكان يزاحون فيه من حياة الأوروبيين إلى مكان يزيحون هم، منه الأوروبيين ؟.

إن هناك قبائل تطرد البيض بلا رحمة وأخرى تمنعهم من الدخول بنص القانون. باسم الماضي ومآسيه من يستطيع أن يمنعهم ؟ ولكن البعض يستطيع مثل ذلك الباحث الأنتروبولوجي الفرنسي المدعو جان راسبيل الذي زار في 1977 محمية الزعيم الهندي مين راسل وبعقلية فرنسيي أوائل القرن مارس غطرسته. حسب نفسه في المستعمرات، بين «الأهالي» لكنهم لعجبه العجاب، اجتمعوا في هيأة محكمة وطردوه. وعلق على قول إحداهن له : إن الحكومة توزع على الهنود أجهزة تلفزيون لتعطيل عقولهم وإلحاقهم بالبيض، قائلا : «أنا متفق معها، بكل هذه الأموال كان الأفضل منحهم آلات غسيل» تلميحا إلى القذارة التي يصمهم بها.

أرض المحمية اليوم عند الهندي هي أرض الوطن وفي القضاء عليها قضاء عليه. منذ قرن قال جورج أرمسترونج : «إننا نشهد مسيرة الرجل الأحمر نحو الانقراض وعما قريب سيتكلم الناس عن جنس نبيل انتقل إلى رحمة ربه». وقال فرانز بوا الباحث الأنتربولوجي بعد ذلك بخمسين عاما : «لقد انقرض الهنود وبسرعة». وقال تيودور روزفيلت : «إن هذه القارة الشاسعة لم تكن لتستمر كمحمية كبرى يمارس فيها القنص متوحشون قذرون».

وفي يوم من أيام خريف 1969 عادت صخرة ألكازار للحياة. لقد لجأ رجال قبائل الهنود إلى السجن الرهيب ليحتجوا على نهب الأنجلو أمريكيين للجزيرة التي يقع عليها السجن من أجدادهم مقابل ما قيمته 24 دولاراً من عقيق الزجاج وقماش أحمر وقرروا أنهم سيستعيدونها وبنفس الثمن وأنهم سيظلون هنودا إلى الأبد.

ودام احتلالهم للجزيرة تسعة عشر شهرا بعدها هجمت القوات الأمريكية وأخرجتهم. أخرجوهم بعدما كانوا قد حققوا الهدف ولم يعد بمستطاع أحد أن يقول : «حسبت أن الهنود انقرضوا». «لا، لقد مر الموت ولكننا ما نزال على قيد الحياة». هذا ما يقولونه.

وتوالت المطالبة بجهات أخرى في كاليفورنيا وولايتي واشنطون وميشيغن وبجبل راشمور. وتلا احتلال ألكازار احتلال مكتب الشؤون الهندية في واشنطون ووندرني. وأثارت هذه الأحداث مشكل الحقوق التي حددتها المعاهدات، التمتع الفعلي بها وإعادة التفاوض حول بعض المعاهدات المبرمة في القرن الماضي، كما أثارت مشكل الحكومة القبلية في المحمية، طبيعة ومدى سلطاتها وتمثيلها للطموح الشعبي، على أن أصعب المشاكل في الحقيقة هو الحقوق المخولة للمحميات بنص معاهدات القرن الماضي التي تثير مسألة استغلال ثروات المحمية، ذلك أن أراضي بعض القبائل تتوفر على مناجم تبين أن استغلالها يعوق الرعي. وهناك مشكل الماء حيث إن القانون الفدرالي يسمح للمحميات باستعمال مياه الأنهار التي تعبرها ولكن مياه هذه الأنهار الآن يتم تحويلها نحو المدن والصناعات والهنود يطالبون بتعويضهم عن ذلك. هناك أيضا مشكل البناء على أراضي المحميات المرهونة للبيض والتي لم يعد الغرب الأمريكي يجد سواها لإقامة مدن اصطيافه ومجمعات متقاعدية. وهناك مشكل الحكومة القبلية الذي يعد من أعوص المشاكل. لقد كانت للمحميات جماعات مكونة من كبار السن تجتمع كلما دعا الأمر لمناقشة المشاكل مع الموظف الفدرالي في المحمية. وفي 1934 سمح للمحميات بالحكم الذاتي وأقيمت حكومات قبلية فبدؤوا يطالبون بالمزيد من

السلط مثل تخويل المحمية مهام مكتب الهنود وأجيبوا إلى ذلك وبدأت بعض المحميات تبني طرقها ومجاريها وتوصل ماء الشرب إلا أن حكومة المحمية لم تلبث أن حلت محل الحكومة الفدرالية وأصبح السكان في مواجهة معها. ووجد الهنود النازحون إلى المدن مشاكل التأقلم وضغوط الحضارة الأمريكية فبدأ عدم الرضى من جديد وتمخض عن حركة الهنود الأمريكيين في مينيا بوليس التي كان بها نازحون من عشرين محمية. وبدأت هذه الحركة تستوحي طرق السود النضالية ومنها مطالبة الكنيسة بتعويض الهنود عما لحقهم من أذى على يدها. واستطاعت هذه الحركة أن تفرض وجودها وتحمل الحكومة الفدرالية على التعامل معها مباشرة. وفي هذا الوقت بدأ في المدن المجاورة للمحميات قتل الهنود واتهمت الشرطة برفض التحقيق أو بالتماطل فيه. وحاولت الحكومة الفدرالية التقليل من أهمية الحركة بخلق تنظيم موازي من رؤساء القبائل الذين كانت حركات الهنود الأمريكيين تتهمهم بالعمالة مقابل ما يتلقونه من اعتمادات لتمويل حملاتهم الانتخابية داخل المحميات ومقابل الدعوات التي توجهها إليهم واشنطون. وسمي التنظيم الجديد بالجمعية الوطنية لرؤساء القبائل ولم يلبث بعد ذلك أن ظهر للوجود تنظيم هندي ثالث من خريجي الجامعات يقف بين الحركتين ويرفض الانشقاق الذي يؤدي إلى التمزق ويدعو لإقامة حكومة قبلية تستجيب لمطامح الهنود ويتبنى العديد من أهداف حركة الهنود الأمريكيين.

وفي صيف 1972 نظمت حركة الهنود الأمريكيين مسيرة إلى واشنطون أسفرت عن إرجاع أراضي البحيرة الزرقاء إلى قبيلة الطاووس وتعويض هنود ألاسكا عن الأراضي التي سلبت منهم. وسميت المسيرة بمسيرة المعاهدات المخروقة. وأعلنت الحركة خلالها عن مطالبها التي تضمنتها لائحة من عشرين نقطة، أهمها مسألة الحقوق المنصوص عليها في المعاهدات والعدل في العلاقات بين قبائل الهنود والحكومة الأمريكية وإلغاء القانون الذي يمنع الهنود من توقيع المعاهدات وتدارك المعاهدات المخروقة وإعادة التفاوض في الإتفاقيات الجائرة

التي أكرهت بعض القبائل على قبولها ومنع بيع أراضي المحميات بوصفها أراضي جماعية.

لقد هدفت اللائحة إلى دعم نفوذ الحكومة الذاتية والموارد التي من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة في المحميات وحظيت بالإجماع ولكن ما أن وصلت المسيرة إلى واشنطون حتى ظهر خطأ تنظيمي فادح.

لقد أغفل حتى ذلك الحين مشكل مقر المسيرة. وعندما أعطيها الإذن باستعمال قاعة المحاضرات في بناية مكتب الشؤون الهندية جاءت دورية ليلية، قيل عن خطإ، لتخرجها بالقوة وأدى ذلك بالمسيرة إلى التخريب والاستيلاء على الوثائق واحتلال البناية لمدة أسبوع. وكانت الحادثة كافية لحمل واشنطون على الضرب بمطالبها عرض الحائط ومناسبة أطلق فيها رؤساء القبائل العنان لمشاعرهم المعادية للحركة وزعمائها فشجبوا الأعمال التخريبية التي قامت بها وعارضوا لائحة المطالب العشرين وعبروا للحكومة الفدرالية عن تعاطفهم. وأثار رفضهم للائحة المطالب حنق المعتدلين. أليسوا بذلك يرفضون الحقوق الهندية التي ضمنتها المعاهدات نفسها ؟. وأضاف ريشارد ولسون رئيس قبيلة سيو أغلالا بداكوتا الجنوبية من عنديته قليلا فصرح أنه سيقوم بطرد أعضاء الحركة المنتمين إلى محميته حالما يرجعون من واشنطون.

وكان أن عاد راسل مينز وصحبه وهو أحد أبرز زعماء حركة الهنود وعدو ولسون اللدود في دجنبر 1973 فتصدى له أتباع ولسون وضربوه. وفي أواخر الشهر هرع على رأس أنصاره إلى ووندني المشهودة وصرح أنه سيعتصم بها إلى أن يستجاب للائحة المطالب العشرين التي أصبحت الآن واحدا وعشرين بعدما ألحقت بها المطالبة بتغيير الحكومة القبلية.

وكان للرجلين أتباع في المحمية فالأول منتخب والثاني زعيم يشعل خماس الشباب ليس داخل محميته وحسب ولكن في كل محمية على التراب الأمريكي ولذلك شمل النزاع مجموع الهنود وقسمهم إلى فريقين. ووونددني هو إسم آخر موقعة بين الهنود والجيش الأمريكي وهذا هو سيناريوها : في اليوم 29 من شهر

دجنبر 1884 كانت محمية أغلالا بولاية داكوتا الجنوبية مشتعلة بالرقص عندما هجمت عليها فرقة عسكرية تابعة للجيش الأمريكي وهي في غاية التوتر، كانت لديها التعليمات بتجريد السكان من السلاح الذي كانوا يحملونه إثر اغتيال أحد زعمائهم على يد المخابرات الأمريكية كما أشيع. وكانت هذه الفرقة العسكرية هي الفيلق السابع للفرسان الذي كانت قبيلة سيو قد هزمته. الأمر إذن يتعلق بتصفية حساب وقد صفي بطريقة لا تخطر على البال، بأربعة مدافع منصوبة حول مخيم من السكان العزل ولنبدأ من البداية. فتح الفيلق، فيلق الكولونيل جايمس برميل خمر، فقد كان فيلق مخمرين عن بكرة أبيه. وبدأت مشادة بين جندي أمريكي وشاب هندي رفض تسليم بندقيته وذهبت طلقة في الهواء أعقبتها طلقات المدافع الأربعة المنصوبة. وسكتت المدافع وأحصيت الجثث : أربعة وثمانون رجلا وأربع وأربعون امرأة وثمان عشرة طفلا، كلهم هنود حمر كانوا قد أعلنوا استسلامهم التام للسلطة الأوروبية الحاكمة.

وونددني هذه، الآن مقبرة جماعية مقفرة، عادت إليها قبائل سيو في ذلك اليوم لتعيد الذكرى وتكتب على ما تبقى بها من حيطان حروف A.I.M (الحركة الهندية الأمريكية). واحتلت الحركة المكان ومعها رهائن مدة سبعين يوما وانتهى ذلك بتبادل النار مع القوات الأمريكية مات فيه أربعة، اثنان من كل جانب. ولتوضيح آراء راسل مينز إليكم أحد منشوراته ويقول فيه : أنا أكره الكتابة لأنها آختزال للتفكير بالمفهوم الأوروبي الذي يعطي لما هو مكتوب أهمية ينكرها على ما هو منطوق. إن تقاليد حضارة قبيلة لاكوتا التي أنتمي إليها تقاليد شفاهية ولذلك فإن رفض الكتابة عندي أمر بديهي. الكلام عند البيض يجرد العلاقة بين الناس فيخرب حضارات الشعوب غير الأوروبية ولذلك فأنا لم أكتب ما تقرؤونه وإنما أمليته وكتبه غيري. وليكن إن كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الأبيض، وسيلة تمر من خلال الميت، الأوراق والحروف. على أنه في الحقيقة لا يهمني أن تصل كلماتي إلى البيض. لقد برهن أكثرهم على مر الأحقاب أنهم صم، عمي، قصارى ما يستطيعونه أن يقرؤوا.

أنا لا يهمني إلا الهنود الأمريكيون، الطلبة منهم والآخرون الذين بدأ العالم الأبيض يجرفهم عن طريق جامعاته ومؤسساته. ليكبر المرء إن شاء، ليكون ذا وجه أحمر وعقل أبيض، مثل هذا ليس عندي ما أقوله له سوى أنه يساهم في الإبادة الحضارية التي يشنها علينا الأوروبيون، الذين أوجه لهم الخطاب هم الهنود الأمريكيون الذين يريدون مجابهة الإبادة ولا يعرفون كيف. أستعمل لفظ هنود أمريكيين وليس «الأهالي الأمريكيين» أو «السكان الأصليين» أو «الأمر يهنود» وأعتبر الجدال الذي أثير حول هذه التسميات جدالا سخيفا. نرفض لفظ أهالي أمريكيين لأنه أوروبي ؟. ولكن الألفاظ الأخرى الباقية أيضا أوروبية، الشيء غير الأوروبي الوحيد هو أن تتكلم عن قبيلة لاكوتا أو أغلالا أو بريلي... عن ديني أو ميكوزوكي. إن كلمة هندي نفسها يعترنها الالتباس ويخطىء من يحسبها مرتبطة بالهند. عندما وصل كولومبس إلى شاطىء الكرايب لم يكن يبحث عن شيء اسمه الهند. كان الأوروبيون في 1492 يطلقون على هذه البلاد إسم هندستان والخرائط القديمة تشهد بذلك. كلومبس هو الذي سمي القبائل التي وجدها «إنديو» عن الايطالية «إن ديو» التي تعني في الله.

إن مقاومتنا لتحولنا إلى أوروبيين تتطلب منا مجهودا جبارا لن تمدنا به إلا تقاليدنا التي حافظ عليها آباؤنا والتي تكمن في الطوق والاتجاهات الأربع وليس في صفحات كتاب ولا حتى ألف كتاب. لا يوجد على وجه الأرض أوروبي واحد يستطيع أن يعلم هنديا كيف يكون لاكوتيا أو هوبيا ولن تستطيع شهادة ليسانس في الشؤون الهندية أو التربية أو ما تشاء أن تجعل المرء إنسانا وتشربه بالتقاليد. إنها لا تستطيع إلا أن تحوله إلى أوروبي بالتفكير وعندما أقول أوروبي وأوروبي بالتفكير لا أريد أن يفسر كلامي تفسيرا ملفقا. أنا لا أعني أن هناك نتاج تقدم فكري أوروبي قام منذ بضعة آلاف من السنين على الإبادة والرجعية، من جهة وأنه سيء وأن هناك في الجهة الأخرى تقدم ثوري جديد وأنه جيد. لا إن ما يعرف بالماركسية واليسارية ما هو إلا جزء من التراث الفكري الأوروبي. والعملية تبدأ قبل ذلك، منذ حول نيوتن الكون الطبيعي إلى معادلة رياضية مكتوبة على

الورق. نفس الشيء فعله ديكارت بالثقافة وجون لوك بالسياسة وأدام سميث بالاقتصاد. كل واحد من هؤلاء في نطاق اختصاصه أخذ جزءا من روحانية الوجود وحوله إلى رمز، إلى تجريد بدأه حيث انتهت المسيحية لعلمانية الدين فسمحوا لأوروبا بالتصرف كحضارة توسعية. ولم تتوان واحدة من هذه الثورات عن تجريد التفكير الأوروبي وسلب الكون تشابكه البديع وروحانيته وإبدال ذلك بالتواتر المنطقي : واحد، إثنان، ثلاثة، نتيجة. يا لها من فعالية ! كل ما هو ميكانيكي موصوف بالكمال، كل ما ثبتت صلاحيته الظرفية وأكد صحة النموذج الميكانيكي مناسب وإن كان غير سليم... ولذلك تتغير الحقائق في الفكر الأوروبي وبسرعة ويأتي البديل لسد الثغرة مؤقتا في انتظار حلول أخرى تؤكد النماذج الميكانيكية وتبقيها على قيد الحياة.

هيغل وماركس ورثا تفكير نيوتن وديكارت ولوك وسميث وأنهى هيغل مهمة علمانية الدين والتفكير الديني على حد تعبيره، ذلك التفكير الذي كانت أوروبا تفهم الوجود من خلاله. بعد ذلك جاء ماركس وصاغ فلسفة هيغل في ألفاظ مادية فجرد عمله من الروح دفعة واحدة وباعترافه.

ويرى الأوروبيون في ذلك طاقتهم الثورية ؟. ليكن أما نحن الهنود الأمريكيين فإننا لا نرى فيه إلا استمرار الصراع الأوروبي القديم بين الوجود والكسب. إن الماركسية الجديدة هي الأمبريالية الأوروبية، جذورها الفكرية تربط ماركس بنيوتن بهيغل بالآخرين. لقد حاول الهنود الأمريكيون أن يكونوا أفضل وحاولوا أن يتخلصوا من الثروة ويحتقروها فالربح المادي عند الشعوب القديمة وضعية مزورة بينما هو عند الأوروبيين دليل على سلامة النظام. الأمر إذن يتعلق بنظريتين على طرفي نقيض وتعالوا ننظر في النتائج.

إن إصرار الأوروبي على تجريد الكون من الروح بمثابة تجريد الإنسان من إنسانيته ومن ثمة خبرته في تجريد الناس من إنسانيتهم. الجنود يفعلون ذلك بالعدو في المعارك والمجرمون والنازية والبوليس، ومديرو المؤسسات يفعلونه

بعمال المناجم والسياسيون بجميع الناس والقاسم المشترك بين هؤلاء هو أن التقتيل والتخريب عندهم مقبول.

المسيحية تقول : «لا تقتل» الإنسان على الأقل ولكنهم يعمدون إلى تجريد الضحية من إنسانيتها ليتحايلوا على الدين وعندما يتعلق الأمر بالكون بأسره يصبح تخريب الكرة الأرضية فضيلة فيستعملون مصطلحات مثل «تقدم» و«تطور» للتمويه بنفس الطريقة التي يستعملون بها كلمات «نصر» و«حرية» لتعليل سفك الدماء. المضارب العقاري يقتلع الحضارة من جذورها ويعلل لك ذلك بتنمية الأرض، تنمية تعني التخريب النهائي الذي ينتهك الأرض نفسها. لقد كسب المنطق الأوروبي أطنانا من الحصى نمى بها الأرض وشق الطرق والمجال أمامه مفتوح ليفعل بالكون ما يشاء فهو لا يرى وجه الضرر في ذلك. لقد جرد فلاسفته الحقيقة من الروح فلم يعد قادرا على إيجاد الرضى في مجرد التملي بطلعة الجبل أو البحيرة أو الناس لأن رضاه يقاس بالربح. الجبل عنده حجارة والبحيرة طاقة والناس وقود المضانع التي يسمونها مدارس.

وكل واحد من هذه الأمثلة خليق بأن يفاجئنا يوما ما بما لم يكن في الحسبان ولنأخذ الطاقة. منذ أكثر من قرنين بقليل كانت الناس تستعمل الحطب، المادة المتجددة، في الطبخ والتدفئة وجاءت الثورة الصناعية وأصبح الفحم هو الطاقة بعدما أصبح إنتاجه ضرورة اجتماعية أوروبية وبدأ التلوث في المدن وبقر بطن الأرض لاستخراج الفحم في الوقت الذي كان يمكن فيه جمع الحطب دون إلحاق ضرر بالبيئة ثم تطورت التكنولوجية من خلال «الثورات» العلمية وأصبح البترول هو الطاقة وازداد التلوث وإلى الآن لا يعلم إلا الله نتيجة ضخ هذه الكميات الهائلة من البترول في المدى البعيد. وهاهي أزمة الطاقة وظهور الأورانيوم. ويمكننا أن نعتمد على الأوروبيين ليطوروا لنا طرق استخدامه كطاقة بقدر ما يحققه لهم ذلك من أرباح إنها أخلاقياتهم، أما الماركسيون فإن حافزهم في أن يفعلوا ذلك هو فعالية الأورانيوم، ألم تولد الماركسية في قلب التقاليد الأوروبية ؟.

هناك حقيقة أساسية لا يجب إغفالها وهي أن أي مذهب أوروبي ثوري مهما كان لا يجب الحكم عليه من خلال ما يعد بإحداثه في المجتمع الأوروبي ونفوذه ولكن من خلال ما سيكون له من آثار على الشعوب غير الأوروبية. إن الثورات التي عرفها التاريخ الأوروبي أدت إلى تقوية قدرة أوروبا على تصدير الدمار إلى الشعوب والحضارات والبيئة وأتحدى أيا كان أن يثبت لي عكس ذلك. ويريدون منا نحن، الهنود الأمريكيين، أن نصدق أن مذهبا أوروبيا مثل الماركسية قادر على تغيير شيء مما ألحقه بنا التاريخ الأوروبي ؟.

إننا نحن الذين نعيش في محمية باين ريدج نعيش على حدود مجتمع البيض كمنطقة تضحية وطنية. معنى ذلك أننا نعيش على أورانيوم تحتاجه حضارة البيض لا نحن. معنى ذلك، أنهم سيتخلصون من نفايات الحفريات هنا، على عتبات بيوتنا مع ما تحتويه من إشعاع سيجعل أرضنا غير صالحة للسكنى إلى الأبد وهو ثمن مقبول في عين الصناعة والمجتمع الأبيض الذي خلقها. ليس هذا وحسب، إنهم يخططون لضخ المياه الجوفية في هذه المنطقة من داكوتا الجنوبية وبذلك تصبح أرضنا غير صالحة للسكنى مرتين ونفس الشيء سيحدث لأراضي قبائل نفاهو وهوبي وشيين وكراو وغيرها.

إن 30 في المائة من فحم الغرب الأمريكي ونصف مستودع الأورانيوم الأمريكي موجود تحت أراضينا ولذلك فإن المسألة ليست بالهينة.

ونحن نرفض أن نكون منطقة تضحية وطنية وشعب التضحية الوطنية ولا نقبل أن نكون ثمن عملية صناعية ونعتبر قيام الحفريات في أرضنا وضخ مياهها استمرارا لحرب الإبادة ضدنا لا أقل ولا أكثر. لنفرض أننا بدأنا نبحث لموقفنا هذا عن حلفاء ولنفرض، مجرد افتراض، أننا وثقنا بالماركسية الثورية التي تريد قلب النظام الرأسمالي المهدد لوجودنا. إنها تبدو حليفا طبيعيا. أليس هؤلاء الرأسماليون هم الذين يريدون أن يجعلوا منا شعب «التضحية الوطنية» ؟ يبقى أن الماركسية نفسها ستكون ملزمة بالإبقاء على العملية الصناعية التي تهددنا مع وعد بإعادة توزيع المحصول على قطاع أوسع ومعنى ذلك أنها تعد بانتزاع الثروة من الرأسمالية

لتوزعها على المواطنين وحتى يتسنى لها ذلك يجب أن تبقى على النظام الصناعي، أن تغير موقع النفوذ في المجتمع الأوروبي أن تقع الآثار مرة أخرى علينا، نحن الهنود في أمريكا وعلى غير الأوروبيين في الجهات الأخرى وأن يعيد التاريخ نفسه وتتكرر تجربة الثورة البرجوازية التي أخذت النفوذ من الكنيسة ووضعته في يد الأعمال الحرة. وإذا كان المجتمع الأوروبي قد تغير نوعا ما، تغيرا شكليا على الأقل فإن سلوكه مع غير الأوروبيين لم يتغير وما صنعته الثورة الأمريكية بالهنود في 1776 شاهد على ذلك.

الماركسية الثورية كالمجتمعات الصناعية تربط الناس بالصناعة وتتكلم عن (الحد الأقصى للصناعة والحد الأقصى للإنتاج) في مادية تزدري تقاليدنا الروحية كهنود وثقافتنا وطريقة عيشنا. ماركس نفسه سمانا بقبل الرأسماليين وبالبدائيين. معنى كوننا قبل رأسماليين في رأيه أننا قد نكتشف الرأسمالية ونسقط في أحضانها. إننا على حد قوله، متخلفون اقتصاديا منذ كنا وفرصتنا الوحيدة للمشاركة في ثورته هي أن ننضم إلى المجتمع الصناعي ونصبح عمال مصانع أو بروليتاريا كما يسميهم. الرجل واضح في أن ثورته لن تحدث إلا بصراع البروليتاريا وأن وجود المجتمع الماركسي الناجح مشروط بوجود النظام الصناعي الضخم. وهنا، يبدو لي أن المشكل مشكل لغة. مسيحية، رأسمالية، ماركسية كلها ثورات في أذهان أصحابها والحقيقة أنها لا تعدو أن تكون استمرارا يبقي الحضارة الأوروبية ويواصل نموها.

ومن كل ما سبق نخلص إلى أن علينا نحن الهنود الأمريكيين إن أردنا الالتحاق بركب الماركسية أن نقبل التضحية الوطنية ونقدم على انتحار ثقافي ونصبح مصنعين وأوروبيين. هنا لا بد من وقفة أراجع فيها نفسي. هل أنا شديد اللهجة أكثر مما يجب ؟. إن للماركسية تاريخا فهل يثبت هذا التاريخ ما أقول ؟. أنظر إلى عملية التصنيع في الاتحاد السفياتي منذ 1920 وأجد أن الماركسيين استطاعوا في ستين عاما أن يفعلوا ما فعلته الثورة الصناعية البريطانية في ثلاثة قرون، أن التراب السفياتي كان أرض قبائل عفى أثرها وقامت مقامها المصانع في عملية سماها السفيات بـ «المسألة الوطنية» أي عدم حق شعوب القبائل في الوجود

لأسباب صناعية. أنظر إلى الصين وأجد نفس الشيء، إلى فيتنام وأجد الماركسية تقتلع القبائل الجبلية من جذورها.

أجد عالما سفياتيا يصرح أن العلم لن يعجز عن إيجاد بديل للأورانيوم عند الضرورة. أجد الفيتناميين يستولون على مصنع لإنتاج الطاقة النووية تركه الجيش الأمريكي.

إن الإيمان الأوروبي بما فيه الإيمان الخالص بالعلم يساوي الاعتقاد بأن الله هو الإنسان. وأوروبا على الدوام تبحث عن مسيح سواء كان اسمه عيسى بن مريم أو كارل ماركس أو ألبرت آنيشتاين. ونحن الهنود الأمريكيين نعرف أن ذلك هراء. إن الإنسان هو أضعف المخلوقات بحيث أنه غير مستعد لتقديم لحمه لكي يعيش وأنه المخلوق الذي لم يصارع الموت بالأنياب والمخالب وإنما بالعقل تلك اللعنة التي أنسته، على عكس غيره، النظام الطبيعي للأشياء. الذئب لا ينسى مكانه في النظام الطبيعي، أما الهنود فيفعلون أحيانا والأوروبيون دائما. نحن نأكل لحم الغزال ونحمد له ذلك أما الأوروبي فيأكل اللحم كتحصيل حاصل ويترفع على الغزال ويتشبه بعقله وعلمه بالله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن الثقافة الأوروبية بما فيها الماركسية تتحدى النظام الطبيعي للأشياء وتتآمر عليه فتنتهك الأرض وتسلم بأن أية نظرية كفيلة بإصلاح ما فسد. يجب أن تقف عند حدها وإلا فإن أمنا الأرض ستأخذ بثأرها والبيئة كلها ستأخذ بثأرها وتقضي على الذين انتهكوها.

إن العجلة تدور لتأتي الثورة الحقيقية. نحن في قبيلة لاكوتا نعرف ذلك وجميع الناس المستقيمين يعرفون ذلك.

لقد حاولنا أن نوصل للأوروبيين هذه الحقيقة ومنذ قرون ولكنهم كما قلت لا يسمعون وسينتصر نظام الكون الطبيعي وسيقضى على من ينتهكونه كما يقضي على الغزال عندما يخل بالتوازن ويكثر من التناسل.

المسألة مسألة وقت في انتظار الكارثة. وها هي الصين تفجر قنابلها النووية وتنشأ محركات تعمل بالأورانيوم وتستعد لاستعمار الكواكب بنفس الطريقة التي استعمر بها الأوروبيون الأرض وربما بسرعة أكبر.

تصريح العالم السفياتي حول بديل الأورانيوم مهم جدا، هل لديه فكرة عن هذا البديل ؟. لا، وإنما هي مسألة إيمان وسيجد العلم، سيجد.

ويقول الماركسيون الثوريون سيتغلب الإنسان على تخريب البيئة وعلى التلوث وعلى الإشعاع. هل لديهم فكرة عن الوسيلة ؟. لا، وإنما هي مسألة إيمان وسيجد العلم، سيجد.

الإيمان بهذا الشكل كان يعرف في أوروبا، إلى حين، باسم الدين وعليه، يكون العلم قد أصبح هو ديانة أوروبا الجديدة بما فيها من رأسماليين وماركسيين.

وهل يمكن الفصل بين الفريقين ؟.. إنهما جزء لا يتجزأ من حضارة واحدة.

الماركسية تطالب نظريا وتطبيقيا، شعوبا غير أوروبية بالتخلي عن قيمها وتراثها ووجودها الثقافي لنصبح جميعنا مصنعين منكبين على العلم في مجتمعها الماركسي، لذا فأنا لا أحمل مسؤولية جعل الهنود الأمريكيين «تضحية وطنية» للرأسمالية وإنما للتقليد والحضارة الأوروبية التي تعد الماركسية حلقتها الأخيرة. وهذا ما يجعل أي تحالف معها تحالفا مع القوة التي تقول إننا يمكن أن نكون ثمنا لاستغلال المناجم.

نحن قبائل الهنود نؤمن أنه لا حق للإنسان في تخريب أمنا الأرض. إن هناك قوى تفوق تصور الفكر الأوروبي. إن على الإنسان أن يعيش في انسجام مع بيئته وإلا أهلكه التنافر. وتركيز الأوروبي على نفسه وتصرفه ككائن فوق جميع الأشياء المتجانسة سيؤدي إلى التنافر التام الموجب للإصلاح وإعادة الأمور إلى نصابها وإعادته هو إلى حدوده من أجل البقاء.

نحن لا نناضل لقلب الحكم والاستيلاء على السلطة. نحن نناضل لمصارعة الموت وهذا أمر طبيعي. نحن لا نريد أخذ مؤسسات البيض وإنما نريد لها الفناء وهذه هي الثورة. لقد أدرك أجدادنا حقائق أخذناها عنهم وما زلنا نتعلم منها

وعندما تمر الكارثة سنكون هنا لنعمر الأرض. لا يهم أن نكون حفنة تسكن جبال الآند. المهم أننا سنصارع وأن الإنسجام سيعود وهذه هي الثورة.-

هناك مسألة يجب أن تكون، على ضوء ما سبق، قد اتضحت ولكنني سأعود إليها درءا لكل التباس خاصة وأن الالتباس من سمات هذا الزمان. عندما أقول أوروبي لا أقصد لون البشرة أو السلالة وإنما القالب الفكري والنظرة إلى العالم اللذين جاء بهما ازدهار الحضارة الأوروبية فإن الناس غير مصنفة سلاليا لتلقى النظرة ولكنها مؤهلة لذلك عن طريق الثقافة وهي قاعدة عامة لا تقتصر على الهنود الأمريكيين وحدهم.

من الهنود الأمريكيين من تلقى النظرة والقيم الأوروبية. هل تعرفون كيف نسميهم ؟ نسميهم تفاحة، حمراء من الخارج بيضاء من الداخل. وأنا أعتبر كل من يدافعون عن مقومات الحضارة الأوروبية وصناعتها أعداء وكل من يقاومونها ويحاربونها حلفاء كيفما كان لونهم. إن الفتناميين ليسوا بقوقاز لكن تفكيرهم أوروبي مثل الشيوعيين الصينيين ورأسماليي اليابان وبيتر ماك «دولار» هناك في محمية نافاهو وديكي ولسون في محمية باين ردج.

أنا أعمل مع أبناء عشيرتي لاكوتا الذين تربطني بهم رؤيا واحدة للعالم وصراع راهن وبعد ذلك مع شعوب الهنود الأمريكيين وبعد ذلك مع الذين مورس عليهم قمع الاستعمار الأوروبي وقاوموا ثقافته وصناعته بما فيهم الإرلنديون والباسك، وأطبق شعار آمن برؤيا أخيك وأزيد عليه وأختك وأثق في العشيرة وفي النظرة المكتسبة من الحضارة الخاصة بالأجناس التي تقاوم التصنيع والقضاء على البشرية، وبإمكان البيض أن يلتحقوا بنا إن عهدوا في أنفسهم القدرة على اعتبار استمرار حتميات الصناعة الأوروبية انتحارا طائفيا وليس بنظرة.

اللون الأبيض في قبيلتي لون مقدس، الأحمر، الأصفر، الأبيض، الأسود هي الاتجاهات الأربع، هي الفصول الأربع، هي مراحل العمر والأجناس وعندما نخلط هذه الألوان نحصل على اللون الأسمر، لون الجنس الخامس.

يدهشني أن أجد القوقاز ينصبون أنفسهم للدفاع عن أوروبا كلما انتقدتها مبتدئين بالدفاع عن أنفسهم وكأنهم أفرغوا عليها الهوية الأوروبية. هذه الصراعات الهامشية ينبغي التخلص منها على الفور لأنها مضيعة للجهد. وأنا على يقين أن للقوقاز نظرة واقعية عليهم إن أرادوا استعمالها، أن ينسلخوا من الحضارة الأوروبية ليرووا أوروبا على حقيقتها. نفس الشيء أقوله لباقي الأجناس التي تتمسك بالرأسمالية والماركسية وغيرهما لأنها تبقيهم في شباك أوروبا وحضارتها. المسألة مسألة اختيار وأنت عندما تختار أوروبا وصناعتها تكون قد اخترت أن تكون عدوي. وهذا يقودني إلى مخاطبة أولئك الهنود الأمريكيين الذي جرفهم تيار الجامعات وأحياء المدن القذرة وباقي المؤسسات الأوروبية، لهؤلاء أقول : إن كنتم هناك كي تتعلموا مقاومة القمع بوسائلكم فلا بأس. أنا لا أعرف كيف ستجمعون بين الأمرين ولكنكم قد تنجحوا. عليكم أن تكونوا واقعيين.

إياكم والاعتقاد أن عالم البيض له الآن، حلول للمشاكل التي يواجهنا بها أو أن تشوهوا لفظ «سكان أصليين» لمصلحة العدو.

لقد اختلقت أوروبا تقليد جعل الكلمات تتلوى حول نفسها وارجعوا إلى معاهداتنا مع مختلف الحكومات الأوروبية لتتأكدوا من ذلك. إن حضارة تخلط بين الثورة والاستمرار، بين العلم والدين، بين التمرد والمقاومة ليس عندها ما تنفعكم به وليس لها نمط حياة. لقد فقد الأوروبيون، ومن زمن بعيد، القدرة على لمس الواقع إن كانوا قد لمسوه في يوم من الأيام.

إئسفوا لحالهم، إن شأتم ولتطمئن نفوسهم لكونكم هنودا أمريكيين. لقد حاولت أن أكون زعيما إلى حد ما بالمعنى الإعلامي للكلمة عندما كانت حركة الهنود الأمريكيين منظمة فتية وجاء ذلك نتيجة التباس تخلصت الآن منه. إن الإنسان لا يستطيع أن يكون كل شيء بالنسبة لكل الناس وعلى أعدائي ألا ينظروا إلى بتلك الصفقة. أنا لست بزعيم وإنما وطني من أغلالا لاكوتا وحسب، وهذا يكفيني.

الأنثوية الأمريكية ونار الثورة التي خمدت

مأساة الحرية في الولايات المتحدة أنها
تسمح لأي كان باعتلاء المنابر.

عندما تلزمك الضرورة بالقراءة عن الأنثوية الأمريكية فإنك تخرج بالدوار ولا تملك إلا أن تتساءل :

«أية قوة وراء كل ذلك ؟». الرجال هم العدو والدين والمناضلة المتطرفة مع الإجهاض، مع الشذوذ طريق التحرر من الرجل والبديل، ضد الزواج، ضد الأمومة. شعب النساء. ثورة النساء. سلطة النساء. Womankind وهي لفظة تعوض Mankind التي تعني الإنسانية وHerstory عوضا عن «History» التي تنسب التاريخ للرجل Vis وCos وHeris وTer وHer عوضا عن His ضمير المذكر والمؤنث.

«أنا أنثوية تقول روبين مورغان الصحفية في مجلة ميز في كتابها خرق الحدود وأنثوية متطرفة. أنا أنثوية مناضلة. أنا ساحرة، شاذة، أنا غول وفخورة بذلك. لقد مضى على البعض منا نحن الأمهات اليهوديات زمن كنا نسعى فيه بين النساء المستقيمات والنساء الشاذات للتقريب.

وساعدتنا كراهية المرأة التي كان الفريق الثاني عرضة لها في منظمة الشاذين على إلحاقه بالحركة الأنثوية وإن كان العديد منهن من الأعضاء المؤسسين لها بأسماء مستعارة خوفا على ذهاب العمل أو السكن أو الحضانة وخوفا على سمعة N.O.W، (المنظمة الوطنية للنساء). قالت ذلك ردا على تصريح بيتي فريدان رئيسة هذه

المنظمة لجريدة نيويورك تايمز في 1973 الذي قالت فيه إن ذلك النوع من النساء سربته إلى منظمتها المخابرات الأمريكية. هناك إذن يد وسواء كانت لـ C.I.A أو غيرها فإنها من الشيطان الرجيم. وتتحدث مورغان عن الأم من هذا النوع التي ترى أطفالها يتعرضون للحجز من لدن باترياركا تحاول يوميا سلب عقولهم وأرواحهم وأن «ذلك يعد الركيزة التي قامت عليها الثورة الأنثوية». وأن الشذوذ تحرر بفضل الحركة الأنثوية وأعلن عن نفسه. وتتكلم عن حادثة وقعت في مؤتمر عقده أمثالها في لوس أنجلس في 1973 عندما ظهر رجل وأعلن أنه مدعو وأنه امرأة وامرأة من فصيلتهن وهي حسب تحليلها الفذ طريقة ساذجة لمغازلة النساء. واستطاع هذا الساذج أن يحدث انشقاقا في المؤتمر فبدأ نصفه يطالب بطرده والنصف الثاني يدافع عنه بوصفه «أختا» ولكم أن تحكموا ما إذا كان الاضطراب النفسي قد وصل إلى هذا الحد في أي مكان أو زمان.

مأساة الحرية في الولايات المتحدة أنها تسمح لأي كان باعتلاء المنابر.

رأيت أعضاء الحركة الأنثوية أول ما رأيتهن في تجمع نسوي بالرباط عام 1974. كن حوالي أربعة، مغربيات الشكل غربيات الجوهر، وطلعن بملتمسات أصابت الجمع بالذهول فقد تضمنت المطالبة بالقضاء على العديد من أحكام الشريعة الواردة بصريح العبارة وفي القرآن كالإرث مثلا. وفي 1982 أصابني نفس الذهول مرة أخرى. كان المعهد العالمي للصحافة قد حاول أن يدبر لنا لقاء مع بيتي فريمان رئيسة المنظمة الوطنية النسوية في أمريكا وظل إلحاحه على الطلب يقابل بإلحاحها على الرفض حتى رأيت إحدى عضوات المنظمة وقالت إنهم لما اخبروا فريمان أن إريك بوم يتصل لترتيب لقاء مع مجموعة من الأجانب سألت : «وهل إن إريك هذا رجل ؟» فلما أجابوا أن نعم إنه رجل، قالت : «إذن لا سبيل».

يا للهول ! رئيسة المنظمة الوطنية للنساء في الولايات المتحدة ترفض مقابلة لأن الذي ينظمها رجل ؟!.

أي نضال ؟ وأية إديولوجية ؟. ماذا كان سيحدث لبرنامجنا لو أن العشرات ممن رأيناهم رفضوا استقبالنا لأن بيننا نساء ؟.

إنها سياسة النعامة والميز واعتاد كل ما يناضلن ضده وتصرف أطفال يثبت الحكم على المرأة بأنها ناقصة عقل. يذكرني ذلك بما كتبته روبين مورغان في افتتاحية كتابها، قوة الأخوة النسائية «هذا الكتاب خططت له وكتبته ونشرته وراجعته وصممته نساء ولم يعتر العملية الخلل إلا عندما وصل إلى مرحلة الطباعة التي ما تزال مغلقة في وجوهنا». ونسيت الموزع والبائع وربما المشتري... نفس الشيء تزعمه مجلة ميز في إعلانها عندما تقول : «هذه المجلة هي المجلة النسوية الوحيدة التي تنجزها وتملكها نساء». الحركة تساند الإجهاض وتسمي المشرع مجرما لأنه يعرض حياة المرأة للخطر بإكراهها على اللجوء إلى تجار الإجهاض عوض مستشفيات الدولة ويحملها مسؤولية حمل لم تكن تريده.

وتعارض الحركة كل محاولة للحد من توزيع وسائل منع الحمل وتناقش أحيانا سيطرة الذكور على قطاع الطب الحديث وتتابع حالات الميز في ميادين الاقتصاد والتعليم والوظيفة أمام المحاكم وكذا الشركات التي تدفع للنساء أجورا أدنى. ساعدت الكاتبات على تأسيس نقابة واحتجت على سوء معاملة السلطة المحلية للنساء. طالبت بإلغاء القانون الذي يمنع المرأة الأمريكية من التصرف في ممتلكاتها. طالبت بأن تسند الحضانة للأب واحتجت على استعمال النساء في أندية البلاي بوي كأرانب وعلى استعمالهن في الإعلان لبيع الخمر والسيارات. طالبت بألا تتسمى المرأة باسم زوجها. حاولت سحب الكتب المدرسية التي تقدم المرأة كعروس وزوجة وأم ومضيفة طيران وسكرتيرة وبدأت تقدم دروسا عن المرأة في الثانويات والمدارس الابتدائية وتشجع على القيام بدراسات أنثوية.

الاختلاف بين المرأة والرجل لا تعترف به، وتعتقد أن الاختلاف البيولوجي لا يكاد يذكر وأنه حجة واهية في يد نظام قاهر. احتجت على اعتبار واجبات المرأة كزوجة وأم من باب تحصيل الحاصل وعلى ما يترتب عنها من قيود وقالت إن المرأة يجب أن تعامل كالرجل الذي بإمكانه أن يجمع بين دوره كأب وزوج ومهام عمله وحملت مسؤولية ذلك للجميع آباء وأساتذة وصناع لعب وكتاب أطفال، لأنهم يوجهون الطفلة لكي تصبح أنثى وإعلاما لأنه يروج عن طريق المسلسلات والأغنية

والإعلان الأفكار المسبقة التي توعز بأن المرأة ناقصة عقل وقدرة وأنها مشتتة ومستسلمة وسلبية. وقالت إن الميدان الوحيد المعترف لها فيه بنوع من المبادرة هو هندامها حيث تتحقق لها الحظوة بحسب أناقتها لا بحسب صفاتها وأنها تتجمل لإرضاء الرجل. وبما أن الجمال ليس مشاعا وأنه فان وأن الصبى لا يدوم فإنها حتى في هذا محكوم عليها بالفشل. وهكذا بعدما تنصرف للمظهر تفقد الثقة في نفسها وتصبح مستعدة لتقبل أن الرجل أفضل.

وعندما قال العلماء إن تكوين المرأة السيكولوجي مختلف، وقفت الحركة في وجوههم بشراسة وقالت إنها مناورة لتبرير دور المرأة التقليدي ولكنها عندما وقفت تطالب للمرأة بأوقات عمل تناسبها كأم وبحقوق خاصة داخل ميثاق حقوق الإنسان نسيت إنكارها للاختلاف ووقعت في مطب التناقض.

عندما يتكلمن عن القمع يقصدن منع المرأة من الخروج من دورها التقليدي بتصرفات قائمة على الأفكار المسبقة والميز والمغالاة وتفضيل الذكر. ويقلن إن سبب ذلك هو الاعتقاد بأن التساهل سيفتح الباب أمام المزيد من التغيير إلى الحد الذي يقلب الأدوار ويجعل الزوجين يتفقان على أن سعادتها في أن تعمل هي وينقطع هو لأشغال البيت وتربية الأطفال وذلك في رأيهن يجرد الرجل من رجولته المتسلطة ويلبس النساء أوصاف الرجال.

وإلى جانب تقييم العلاقة فيا بين الجنسين أعادت الأنثوية النظر في تقييم العلاقة فيا بين جنس النساء وخلصت إلى القول أن الصلاح والفلاح في التضامن الأنثوي وأن تحرر المرأة التام لن يكون إلا بتحررها من الرجل ومن ثمة أهمية فكرة «Sisterhood» الأخوة الأنثوية. معنى ذلك أن أهمية الرجل تتوقف بمجرد ما تتوقف حياة المرأة من خلاله كزوج أو عشيق فجعلت بعض الجمعيات الانضمام إليها مشروطا بعدم الزواج ومعاشرة الرجال. لذلك، لا تحاول أن تسأل أنثوية مطلقة ماذا ستفعل ؟ وإن فعلت لا تنتظر منها أن تقول إنها سترتبط برجل، فما حسبك بالزواج وعلى الطريقة التقليدية !. يرفضن مناقشة مزايا الزواج والأطفال مخافة أن يستغل العدو ذلك.

وصل بهن الأمر إلى حد رفض تسبيق الرجال على النساء لمخاطبة التجمعات. وإذا حدث ذلك واجهنه بالتهريج. أما معاكسة الرجال فسلاحهن معها الكلام السفيه. ألم تعلمهن الحركة أن التسامح إذا زاد عن حده أصبح قهرا ؟ وأن رجلا لن يسب امرأة إذا عرف أنها سترد بالمثل وهكذا أعدت عبارات قدح جاهزة ووضعت رهن إشارة الأنثويات مثل male chauvinist pig (نعرة الذكر الخنزير) التي اختصرت في الحروف الأولى وأصبحت M.C.P. تقول مارتين لوكوود كاردن : في إحدى التجمعات التي نظمتها جماعة متطرفة وقفت امرأة في نهاية القاعة وقالت : «أريدكن أن تكن على علم أنه يوجد بيننا رجل» فتوقفت الجلسة وصدر الأمر إلى الرجل بالمغادرة فورا لكنه فسر في اضطراب أنه يريد أن يستفيد فما لبثت أن زحفت عليه ثلاث نساء من اللجنة التنظيمية، اثنان منهن على الأقل يمارسن التكواندو. إن العنف ليس وقفا على أحد. يقلن إن كراهيتهن للرجل سببها الاغتصاب وتحيز الشرطة والقاضي والطبيب عندما يتهمون المرأة بالتحريض ويقولون : «لقد نالت جزاءها».

بعضهن ربط التحرير بإنهاء سيطرة الرجل على النظام القائم بكل قطاعاته وحاول تعويضه ببنيات أنثوية ودعا لإقامة الإعلان الأنثوي واقتصاد أنثوي منفصل عن الاقتصاد العام. ودار الجدل حول لفظ آنسة ولماذا تنفرد به النساء وقررن أنه من الآن يجب مخاطبة المرأة بكلمة ميز سواء كانت بكرا أو ثيبا وبعد ذلك بدأن يفتتحن رسائلهن بقولهن : «أختي العزيزة» أو «ماري العزيزة» لأن نسبتها إلى أبيها تربطها أيضا برجل. وذهب بعضهن أبعد من ذلك فغيرن أسماءهن العائلية وتسمين بميز حرية، ميز نضال، ميز غضب، ثم ناضلن على واجهة اللغة والنحو.

وهذا ما حدا «بالعدو» إلى وصفهن بالتطرف والعدوانية والعجرفة والجنون ومجون القول وكراهية الرجل وجعل مناقشتهن مضيعة للوقت وذلك ما يقصد بإعادة تنظيم المجتمع وتطوير المرأة وتلك هي الأنثوية الأمريكية، من إقرار الزنى إلى إقرار الشذوذ إلى إقرار الإجهاض إلى إنكار الاختلاف إلى معاداة الرجل... وعلى أساس ذلك تريد إحلال التغيير على أن المعركة أبعد ما يكون من الانتصار والثورة نار قش قد

خمدت، على عكس حركات أمريكية أخرى. وتقول الكاتبة الفرنسية سيمون دوبوفوار : «إن الحركة الأنثوية الأمريكية تشهد انحساراً فظيعاً بسبب ريغن والأنثوية الجديدة التي تطالب النساء بترك الصراع والرجوع إلى القيم القديمة القائمة على الاختلاف وغريزة الأمومة والتفاني... الخ».

الفقراء في أمريكا

«في أمريكا الفقر فقر والغنى غنى»

شاك غرين
أستاذ الاقتصاد السياسي في مكاليستر

ضرير أسود، على ظهره لوحة وعند قدميه كلب ضخم أسود، وقتما مررت تجده يحرك النقود في علبة ويتململ، إنه شحات نيويوركي، مكانه الشارع الخامس وساكس، محلات البورجوازية الأمريكية.

مالذي يربط الشحات بالمكان ؟

في كتابه «الفقر الأمريكي الجديد» يقول مايكل هارينغتن على لسان أحد صعاليك نيويورك : «كنت أسكن محطة الميترو، خط R.R الواقعة بالشارع الرابع الرابط بين محطة أسطوريا وبايردج. الدفء هناك رائق شيئا ما. وبعدها بدأت أقصد المنتزه المركزي من أجل دفء الشمس». وعندما سأله الكاتب عن سبب ارتباطه بهذا الخط قال : «إنني مستأنس به. كنت أسكن بروكلين، وهذا الخط يذهب إلى بايريدج.. لقد كان لي شقة في بايريدج».

وكان تعليق الكاتب أنه يتشبث بآخر خيط يربطه بمجتمعه وأنه رغم كونه بلا أوراق ولا علاقة إنسانية ظل مقتنعاً بانتمائه إلى حي بروكلين.

في نيويورك حالتان من البؤس، هذه إحداهما والأخرى هي من يتسكع في حدود منطقة تايم سكوير ويعيش بأربعمائة دولار يدفعها له شهريا الضمان الاجتماعي ويقتطع منها مصاريف إجازة شتوية خارج نيويورك. ثيابه من الخردة وطعامه من مركز المعوزين ومبيته في مسكن خيري. هذا الرجل قال لمايكل هارينغتن : «مساء أيام الثلاثاء هناك شيء اسمه اقتناص الكنز. تقصد شارع لكسيغتن

والنهج الحسين حيث يرمي الأغنياء بملابسهم القديمة. ماعليك إلا أن تعرف متى يرمي سكان المنطقة الشرقية بملابسهم. لقد عثرت على أشياء رائعة هناك».

كل من ينزل الشارع الخامس ابتداء من منتزه نيويورك المركزي لا يملك عبر واجهات المعروضات الفرنسية والإيطالية الفاخرة إلا أن يعيش حلما حتى يصل إلى محلات ساكس ويجد الشحات الأسود الضرير وكلبه فيعود إلى الواقع في انتفاضة عنيفة.

ذلك ما حدث لي. وتعديته وتركت إلى الخلف المحلات الأفخر فوجدت رجلا قذراً، أشعث، أغبر، لا يختلف عن صعاليك ألف ليلة وليلة إلا بالبيئة المحيطة به من عمارات الصلب والزجاج التي تتطاول في رشاقة وخيلاء وتناسق بديع، وجدته منحنيا على سلة مكتوب عليها بخط جميل «حافظوا على نظافة نيويورك». ومد يده وأخرج بقية من قرص ماكدونالد، ابتعد بها شرقاً نحو بناية بان آم وشارع بارك، شارع الأبناك الذي يتحول ليلا إلى عمل فني متلألئ بالأضواء في جمال وتبذير للطاقة، لم تبصر لها عيني نظيرا.

رأيت الصعلوك الأمريكي الأشقر وذكرت ما قالته أمريكية من أن : «ما يبهر الشباب المغربي في أمريكا هو انعدام الفقر» وأن شابا مغربياً قال لها : «كيف أمكن لهذا البلد العظيم أن يكون بدون شحاتين ؟». قالت ذلك بزهو لم تستطع أن تخفيه بعدما كانت تتأسف من قبل على كثرة شحاتي السويقة فقلت لها : «ولكن إحدى زميلاتنا في المعهد العالمي للصحافة كتبت لجريدتها استطلاعاً حول شحاتي نيويورك وأنها قالت لنا إن هناك عجائز يبيتون في العراء ومراهقين فروا إلى نيويورك وتعاطوا للبغاء» وارتسمت على وجهها الدهشة. إنها لم تكن تعرف. ومضت تصغي إلى تاجر نيويوركي وهو يقول : «ذات ليلة رجعت متأخراً إلى مسكني جنوب منهاتن، كنت أخطو فوق الأجساد وقد تحول رصيف محطة الميترو إلى مضجع في مدرسة أو ما شابه ذلك».

إنبهار الشاب المغربي وردّ فعل السيدة الأمريكية يدلان على أن الأفكار المسبقة عن الولايات المتحدة تتحكم في تصورنا وتسقطنا في الخطإ بما فينا الأمريكيون

فنرفض أن نصدق أن أمة ذهبت إلى القمر يقهرها الفقر وتكون بها خرائب يسكنها الناس.

أمريكية أخرى من نيويورك قالت لهارنغتن إنها أصيبت بالرعب عندما اقترب منها رجل وسألها نقودا يشتري بها طعاما وأنها انزعجت لأن يحدث ذلك في المنطقة الشرقية وأن ذلك دفعها إلى التطوع في العمل من أجل من لا مأوى لهم، وقالت إنها شعرت بانتقاص من طرف أصدقائها لأن الناس تخاف الحقيقة وتأبى النظر إليها لأنها تدفع المرء لأن يقول لنفسه : «ما أسهل أن يحدث هذا لك لو عدمت الدعم في وقت الأزمة».

وما لبثت أن وجدت أن الخطأ ينطلي حتى على الصحافيين. أليس من العجب أن يكرس صحفي معروف مثل الفرنسي ريمون كارتيي الاعتقاد الشائع بأن فقير أمريكا أفضل من فقير الهند، وكأن شحات نيويورك الذي رأيته يأكل من صناديق القمامة أفضل حالا من شحات نيودلهي. الفقر فقر سواء كان في نيويورك أو في نيودلهي أو غيرهما. يقول بيتر تاونزند الإنجليزي في كتابه الفقر في المملكة المتحدة : «إذا كان الحرمان في ذهننا حرمانا من مظاهر الحياة كالاصطياف والأكل في المطاعم والاحتفال بعيد ميلاد طفل فإن استطلاعا دقيقا على سكان بريطانيا يبين أن المجتمع البريطاني فيه هوة سحيقة. ذلك لأن الفقر هو انعدام الموارد التي تسمح بالمساهمة في الأنشطة والعادات وألوان الطعام والشراب المتداولة مثل الشاي. إن الشاي ليس بذي قيمة غذائية ولكنه من ضروريات الحياة في بعض البلدان». وهو تعريف ارتكزت عليه اللجنة الاقتصادية والاجتماعية للسوق الأوروبية المشتركة عندما عرفت الفقر بقولها : «يدخل في زمرة الفقراء الأفراد والأسر ذات المدخول الضئيل الذي لا يسمح بالمشاركة في نمط الحياة والأنشطة المتعارف عليها. والمقصود بالمدخول كل مورد مالي أو عيني أو خدمات». ومعنى ذلك أن الفقر لا ينطبق على جميع العاطلين وأن العمل الذي لا يفي بالحاجيات لا يغني عن الفقر.

عندما نفكر في أمريكا نفكر في نيويورك وعندما نفكر في نيويورك نفكر في منهاتن، وعندما نفكر في منهاتن نفكر في الشارع الخامس وبارك وماديسون وفي

مركز روكفلير وبناية بان آم وإمبيارستايت، وننسى يونيون سكوير والنهج الرابع عشر وهارليم وبرونكس.. وفي القرن الماضي قال الوزير البريطاني الأول دزرايلي : «في بريطانيا أمتان، أمة الفقراء وأمة الأغنياء». كذلك هناك نيورك ونيويورك. وعلى حد قول هارينغتن في كتابه «أمريكا الأخرى» : هناك أمريكا الأغلبية شبه الموسرة وأمريكا الفقر». هناك بطالة الشباب وبطالة الكهول، وهناك الفقر الأبيض والفقر الأسود والفقر الهندي الذي يقول عنه هارينغتن : «في 1942 قضيت شهرين في مخيم يسوعي بمحمية روزباد الهندية في داكوتا الجنوبية. كان عمري 14 عاماً. كنت طفلا في ذلك الزمان فلم أعرف أنني أعيش في قلب الجريمة. مع ذلك عندما أتصفح الماضي أجد أن ذكرياتي حفظت صور المأساة. أذكر صغار الهنود الذين كانوا يأتون إلى المخيم ويأكلون الخبز الأبيض وكأنه كعك وبين الفينة والأخرى يسرقون منا فرسا. مرة رجعت الفرس وعليها آثار ضرب بالأسلاك الشائكة وكانت مُستعرة من البشر إلى درجة أننا أجهزنا عليها وقيل وقتها : «أليس مخجلا أن يفعل هذا هندي بفرس ؟» فقال أحدنا : «لقد أخذنا أرضه بالقوة فأغرق همومه في الخمر».

كنا نصادف ونحن نتجول على ظهور الجياد هنديا من قبيلة التيبي ونتساءل : ترى ما نوع الحياة في مثل هذا المكان ؟ وفي اليوم الرابع عشر من يوليوز رأيت هنديا يقفز وسط الطريق ويعُب من زجاجة ويسكي. هذه الصور تعكس الحياة التي فرضتها أمريكا البيضاء على الهنود بقسوة وجشع، ولم أكن أعرف وقتها أن البعثة المسيحية التي أعيش فيها تتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية. لم أكن أعرف شيئا عن وونددني الواقعة على مقربة من المخيم. كم تأثرت وقتها برؤية رؤوس الرؤساء الأمريكيين المنحوتة في حجارة جبل راشمور ؟ لم أكن أعرف أن هذا الجبل من البقاع الهندية المقدسة.

أنا الآن أعرف شيئا ما تاريخ ما رأيت وعلى ضوئه أستطيع أن أدرك السبب وراء كون سكان هذه الأرض الأصليين هم أفقر الفقراء في زمن الغزو الأوروبي. إن الفقر الهندي فقر ما عليه من مزيد. متوسط أعمارهم يقل بعشرين سنة عن متوسط

أعمار البيض. 55,1 ٪ منهم حسب إحصاء 1970 يعيشون دون العتبة الرسمية للفقر نتيجة الاستغلال والسياسة التي حاولت محو حضارتهم».

أما زميلنا الفرنسي فقد كتب لجريدته من دترويت يقول : «لقد حكمت السيارة زمنا لم يكن أحد فيه قد سمع بعد باليابانيين. رفاهية فورد وجنرال موتورز كانت كأنها بلا نهاية. كان الحلم حقيقة. كانت البيوت تشيَّد والآن أصبحت في حالة يرثى لها. استغنت صناعة السيارات عن 250 ألف عامل خلال ثلاث سنوات بعدما أُكرهت نقابات فورد على قبول وقف أجورهم لأول مرة في التاريخ وبدأت دوترويت تسلم الروح.

هناك بناية في ملك الرهبان يتدافع أمامها الشبان والشيب. إنها توزع منذ أزمة 1929 وجبة شعبية هي كل ما يأكله طيلة النهار عدد من أبناء المدارس وهي اليوم عبارة عن حساء بطاطس وزوج من السوسيس وجرعة صودا في كأس من ورق ومربع زبدة وقرص غير طري. كان عدد المسجلين في هذه الوجبة منذ ثلاث سنوات 300 وهو الآن ألف وسيزيد مع الأيام. إحدى المسجلات وعمرها 21 سنة وهي أم لطفلين لا يتعدى مدخولها 446 دولارا في الشهر تدفع ثلاث مائة منها في السكن.

وهناك منظمة خيرية توزع الدقيق والسكر على من يدلي من الأمهات بشهادة طبية تثبت أن أطفالهن يعانون من فقر الدم.

في الساحات سيارات كادياك مركونة تشهد بأمجاد الأمس وفي الشوارع شباب أسود عاطل بعدما ردت طلبات التحاقه بالجيش. إن الأقلية السوداء وهي أغلبية هنا تدفع ثمن الأزمة في ولاية ميشغن التي تأتي في المقدمة من حيث عدد العاطلين».

أين من أمريكا زمان كان فيه بإمكان الجميع امتلاك سيارة ؟. في 1925 كان مدخول العامل في ثلاثة أسابيع كافيا لشراء سيارة. كان الإنتاج ضخما وظاهرة الفوردزم تقضي برفع الأجور وتخفيض الأثمان. كانت الناس تدفع بالتقسيط والإنتاج يدور أما الآن فالأوضاع الاقتصادية المزرية تركت الباب مفتوحا أمام الخطر الياباني وتقنياته. زد عليها ارتفاع أجور العمال الأمريكيين الذي جعل المنافسة مستحيلة ودفع بالمعامل والأبناك الصغرى إلى التداعي. زد على ذلك انصراف الحكومة إلى

إعطاء الأسبقية للدفاع العسكري وتشجيع هجرة الاستثمارات بسبب ارتفاع أجور العمال الأمريكيين. إن المساعدة الاجتماعية ضعيفة لأن الحكومة تعيش بعيدا عن شؤون الناس، والناس ترى مثلها الأعلى في القطاع الخاص والمؤسسات التي أثبتت فعالية في التسيير لا تطولها الحكومة حتى أصبح التعليم على شكل المؤسسات الضخمة ووضع قطاع الصحة في يد الخواص بما فيه التأمين الصحي ولم يعد الضمان الاجتماعي كافيا لسد الحاجيات الأساسية.

لقد انحسر الاقتصاد ففسح المجال أمام الجريمة. على أن الأزمة الاقتصادية وحدها لا تكفي لتبريرها وإلا أصبح بالإمكان أن نقول إن كل عاطل مجرم بالضرورة وإن كل واحد منا بتعرضه للبطالة سيصبح مجرما في يوم من الأيام. قد يكون للمشكل الاقتصادي يد ولكن بشرط أن يصحبه ضعف الوازع الديني وتظافر الإثنين وصل بالحالة إلى درجة جعلت أحدهم يقول : «منذ أوائل الستينات وضعت الولايات المتحدة في مخالب جريمة ذات أحجام خرافية».

هل سمعتم بسمفونية نيويورك ؟ إنه الإسم الذي يطلقونه على صفارات سيارات الشرطة. شيء مهول. ضجة لا تفتر في ليل أو نهار. إن نيويورك وكر مخاطر على حد قول شريط «التجربة النيويوركية» الذي يعرض يوميا على السياح. من هذا الفيلم حفظت صورة أقفال أبواب الشقق النيويوركية. هناك أبواب رميت عليها أقفال بقدر ما يسع علو الباب. صورة مقلقة في الحقيقة. المفاتيح في بعض الفنادق لا تحمل أرقاما وفي فنادق أخرى عبارة عن بطاقات تزج في شق فيفتح الباب. رجل الأمن وظيفة ضرورية في المحلات والأبناك والفنادق وهو يطبع المدينة كما يطبعها المتسكعون الذين يغدون في النهج الرابع عشر ويروحون وهم يحملون أجهزة راديو ضخمة ترسل موسيقى صاخبة يرقصون عليها أحيانا ويرمون في وجوه الأجانب الفضوليين بكلمات بذيئة، كما تطبعها الكتابات على أبواب متاجر الأحياء الشعبية وجدران عربات الميترو الداخلية، كما تطبعها سلالم الحديد في جنبات البنايات الحمراء والقمامة الموضوعة في أكياس البلاستيك السوداء على الأرصفة القذرة.

طبع نيويورك عدم الأمان والفكرة الشائعة تهوله : «لا تصل إلى هارليم أو يونيون سكوير أو ملتقى الشارع الثامن والنهج الثاني والأربعين. إياك ثم إياك». «إنها خليط بشري» يقول جان راسبيل عن نيويورك : «ثمانية ملايين فيهم اليهودي والبولوني والأسود والبرتوريكاني والإيطالي والألماني والسويدي والمنغاري واليوناني واللبناني والمتسكع والمخدَّر وأحياناً بعض الإنجليز». «وبرودواي» يقول راسبيل، «تتبع التواءات الطريق الهندي القديم. كانت تعيش هنا قبيلة تسمى مانهات تسمت بها مانهاتن وما وول ستريت إلا اسم للجدار الذي بناه الأوروبيون لصد هجمات الهنود».

الجريمة بحجمها الخيالي كانت منذ كانت شيكاغو «لا بل منذ كانت البشرية» تقول لك عمدة شيكاغو في 1982 الإيرلندية الأصل، المكروهة من السود : «... قابيل وهابيل، هل نسيت ؟».

شيكاغو هي المدينة التي سبقني إليها الخيال لقد كنت على موعد فيها لمرافقة إحدى دوريات الشرطة. متى تسنح الفرصة بمرافقة دورية شرطة وفي شيكاغو ؟..

أليس الأمر مثيراً ؟.

جلست خلف الشرطيين ساعات وجابا الحي اللاتيني والحي الإيطالي وحي الزنوج تحت مطر خفيف. وعرفت أماكن لم يعرفها أجنبي قبلي : بيوت الدعارة في حي الزنوج وأوكار المخدرات والمافيا.

حي الإيطاليين هو الأفضل حالا. بيوته جميلة وشوارعه نظيفة. كان خاليا في ذلك اليوم الممطر وقال أحد الشرطيين : «السود لا يضعون أقدامهم هنا» وكان أسودا «... هناك عداء بين الفئتين، لو فعلوا لأهلكوهم». وولج في شارع وقاد السيارة ببطء وأشار إلى مطعم من طابق واحد في ملتقى طريقين نوافذه تزينها ستائر من النوع الريفي الفرنسي بمربعات صغيرة حمراء وبيضاء وقال : «هنا مركز المافيا» وركزت عليه باهتمام أثارته كلمة مافيا لذلك أذكر شكله وما قاله الشرطي «... إنهم الآن يعقدون أحد اجتماعاتهم». قال ذلك في هدوء تام وأنا ألتفت وأُحدق في المكان من خلفية السيارة الزجاجية وأسأله : «وكيف عرفت ذلك ؟» فقال : «سياراتهم هنا».

وكان هناك بالفعل سيارات جديدة من نوع مرسيديس وبي إم دابليو، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها سيارات من هذا النوع في أمريكا.

ولف الشرطي بسرعة وعاد بنا إلى عين المكان ثم ساق ببطء مرة أخرى وقال : «هل تريدين أن تدخلي ؟ يمكنك ذلك إن شئت وسننتظرك. نحن لا يمكننا الدخول. إنهم لا يحبوننا». وكر المافيا ؟ وفي شيكاغو ؟! من يريد أن يدخله ؟ على أني ما لبثت أن ندمت على أنني لم أفعل.

وواصلنا دوريتنا في شيكاغو القاتمة تحت المطر الهادئة هدوء ذلك المطعم الإيطالي بسحنته الفرنسية وأسطول سياراته الأوروبية الفاخرة.

يقول رؤساء المجالس البلدية في توصية اعتمدها مؤتمر عقدوه في 1981 : «حيث إن نسبة الجريمة ارتفعت إلى 59 ٪ منذ 1970 وأنها زادت بنسبة 10 ٪ فيما بين 1979 و 1980.

وحيث إن ذلك يحدو بسكان المدن إلى تركها.

وحيث إن الظروف الاقتصادية وعدم التسامح العنصري والديني والسياسي خلق جوا مواتيا للعنف وزاد من تأثير الكوكلوكس كلان والتنظيمات النازية واليسارية وما شابهها والتي تسببت في الجرح والموت وإنكار الحقوق الأساسية لأشخاص آخرين.

وحيث إن البطالة من شأنها أن تزيد هذه المشاكل حدة مع ما تعرفه البلاد من تضخم وتخفيض في برامج المساعدة الاجتماعية مما حدا بالرئيس ووزير العدل إلى تشكيل هيئة تحدد ما على الحكومة الفدرالية فعله لمواجهة الجريمة العنيفة.

فإن مؤتمر رؤساء المجالس البلدية للولايات المتحدة الأمريكية يعبر عن قلقه من تزايد الجريمة العنيفة والتوتر الاجتماعي.

ويدين الجماعات المنظمة الهادفة إلى إنكار الحقوق المدنية الأساسية لأشخاص آخرين بمساندتها أو تلقينها أو ارتكابها للعنف وبنشرها للكراهية.

ويحث على إحلال الوحدة من خلال برامج للتواصل الاجتماعي المحلي والتوعية الإعلامية الرامية إلى تشجيع التفاهم وتقبل الآخرين. ويعبر عن استعداده لمساعدة المدن على وضع خطط لمواجهة التوتر الاجتماعي والعنف».

عندما كنت متوجهة إلى الولايات المتحدة طلب مني أحدهم من باب المزاح أن أحضر له معي مسدسا صامتاً. ذلك أن الناس يبهرها تداول السلاح في أمريكا فتتصورها أرضية لما نشاهده في الأفلام، بحيث يمد المارة أيديهم إلى جيوبهم فيخرجون بمسدسات يوجهون طلقاتها إلى شخص أمامهم لا يلبث أن يتداعى في حركة سينمائية متقنة تسلب الألباب وتجعل السلاح عند الطفل لعبة غير ذات عواقب وخيمة. أليس القاتل يقتل ثم يعود إلى الحياة في فيلم آخر ؟.

تداول السلاح يعود إلى عهود الرواد الأوائل وأيام الكاوبوي والهنود التي أحاطته بهالة سحرية. يقولون (تجار السلاح) إن أمريكا بنيت بالسلاح وإن السماح للمواطن بحمله من مميزاتها ويرد عليهم معارضوهم : طيب، ولماذا لا نسمح بنفس المناسبة للمواطن باقتناء دبابة أيضاً ؟. رد في محله، على أنني أجد المسدس في الحضارة الأمريكية كالسيف في حضارة العرب. هل كان هناك عربي لا يحمل سيفاً ؟ وإلى الآن ما يزال اليمني يتمنطق بخنجره كما يفعل الكاوبوي بمسدسه ويحضر به الحفلات والمؤتمرات فلما لا يسبب لنا الخنجر ما يسببه المسدس من قلق ؟ إنه سلاح أيضاً. وهذه ملاحظة فقط لا أقصد بها تبرير حمل السلاح في أمريكا فلا ينزلن قولي برداً وسلاماً على قلب الجمعية الوطنية الأمريكية للمسلحين. وهذه تدافع عن حق المواطن في حمل السلاح لحماية نفسه وتقول إن هناك قوانين تحكم بيع السلاح وتمنع منه مرتكبي الجنايات ومن كانوا في حالة فرار أو مصابين بخلل عقلي أو سبق لهم أن التحقوا بمؤسسة للأمراض العقلية أو كانوا يتعاطون المخدرات أو كانوا دون الواحدة والعشرين أو كانوا يقيمون خارج الولاية التي يريدون شراء مسدسهم منها وأن هذه القوانين تلزم المشتري بالإتيان بإذن من وزير المالية وأن حكم من يشتري مسدسا بنية استعماله في القتل هي عشرة أعوام سجنا وغرامة قدرها عشرة آلاف دولار. وتزيد الجمعية إن حمل السلاح ليس هو سبب الجريمة وأنه ليس هناك دليل على أن منعه

سينتج عنه الحد منها وأن الجريمة على كل حال غالبا ما ترتكب بدون سلاح. نعم ولكن دراسة أشرف عليها المعهد الوطني للعدل في 1981 أثبتت أن 6 ٪ من سكان أمريكا قد أطلقوا النار وأن 250 ألف مسدس يسرق سنويا وأن المسلحين في تزايد وأكد البروفسور رايت الذي شارك في الدراسة أن المواطن. يرغب في منع السلاح منعاً كلياً.

ثم، ألم يقتل جون كينـدي بالسلاح الناري الموضوع بين أيدي المواطنين ؟ وأخوه ؟ ومارتن لوثر كينغ ووالي ألباما جورج والاس المقعد، ما الذي أقعده ؟ أليس السلاح المرخص بحمله ؟

باستثناء نيويورك التي يندفع فيها الناس في تيار بشري يشبه صورة طلقاء المصانع في فيلم شارلي شابلن «الأزمنة الحديثة»، من أحسن ما رأيت في أمريكا، باستثناء نيويورك، بشاشة الناس. ينذر أن تصادف أمريكيا ولا يبتسم لك أو يحييك، «مواطنون سعداء في بلد سعيد ؟». الإسلام إفشاء السلام ولكن من في أرض الإسلام الواسعة يطبق تعاليمه ؟

بعدما رجعت إلى المغرب واصلت البدء بالتحية. كنت أقول لسائق التاكسي : «صباح الخير» فيرمقني من فوق كتفه ولعاملات التلفون فيقلن : «ماذا تريدين ؟» هل وصل بنا التبرم إلى هذا الحد ؟ عدم الرضى يأتينا من حولنا ومن تحت أرجلنا. طالما تساءلت لماذا تردد النساء في بعض المدن المغربية القديمة مواويل حزينة لمجرد البكاء. أما أمريكا فهي تبتسم ولهذا الغرض أنشئت في أطلانطا محطة تلفزيون سلكية لا تبث إلا الأخبار المفرحة : انخفاض الضرائب، ارتفاع قيم البورصة، مولد دب جديد في حديقة الحيوان... وبرنامج صباح الخير أمريكا لا يقدم إلا الناس الناجحين لإشاعة الأمل وتأكيد أن أمريكا بخير. ومع ذلك فإن في عمق الناس شيئا. انقباض، قلق، عدم ثقة، عدم رضى... هل إن تقليب هامبرغر كل ثلاث دقائق طيلة النهار عمل يدعو للانشراح ؟ هناك شيء، يرجعونه إلى مقتل جون كينيدي ومارتن لوثر كينغ، ومهما كان هذا الشيء فهو موجود وهو الذي كان سببا في تحريك الشعور الديني وظهور الأغلبية الفاضلة وزعيمها هو القس جيري فالويل الذي يجمع بين

الإنجيل والمال والسياسة. يبيع قداسه يوم الأحد لمئات محطات الإذاعة والتلفزيون بحوالي مليون دولار ويدير إمبراطوريته الإنجيلية المكونة من كلية لعلوم الدين ومعهد الإنجيل ومدرسة تبيع دروسها بالمراسلة.

حوكمت كنيسته بتهمة الإدلاء ببيانات مغلوطة حول التبرعات التي تتوصل بها و «كثيرا ما تلقى علامات الاستفهام بظلالها على عملياته المالية» كما يقول صحفي أمريكي. ويضيف هذا الصحفي أنه «يستعمل أحياناً قضايا أجنبية لجمع الأموال كقضية اللاجئين الكامبودجيين... وأنه إن لم يكن هناك دليل على أنه يسربها لحسابه فإنه يتمتع بأرغد عيش. بيته إقامة على الطراز الجنوبي من 12 غرفة وصحن ومسبح وحدائق يحيط بها سور عال وتنقلاته تتم على متن طائرة خصوصية. وهذا الحطام الدنيوي يقول عنه : «إنه نعمة من الله، يجازي بها من يخدمون دعوته».

وتعد إسرائيل من قضاياه الأجنبية فهو يظهر مع حكامها ويندد بأعدائها.

كنت أعرف ذلك قبل أن نحضر قداسه في كنيسته بلنشبورغ، فرجينيا، صبيحة ذات يوم أحد ووجدت أنه رجل أعمال أمريكي مائة بالمائة. لذلك لم أبال بوعظه ولكن عندما قال في وجبة الغذاء التي دعانا إليها بمطعم جامعته إن ياسر عرفات إرهابي لم أملك نفسي وقلت : «ولكن البابا استقبله، هل تريد أن تقول لنا إنك مسيحي أكثر من البابا ؟». فقال : «إن البابا يخرف». هذا هو زعيم الأغلبية الفاضلة في الولايات المتحدة التي تزعم أنها قادرة إذا ما أوتيت الأموال الكافية على حمل العالم بأسره على اعتناق المسيحية.

ولقد أصبحت الناس في أمريكا مستعدة لمصارعة مشاكلها بأمثال فالويل وبالعلاج النفسي وتخزين الطعام وشراء سيارات جيدة واقتناء مسدس. قد يكون السبب هو اغتيال جون كيندي ومارتن كينغ، ولكنه أيضا ڤيتنام. ذلك الغول الفظيع كم أثر على الأمريكيين ! قلب موازينهم وزعزع كيانهم وأرسى في أعماقهم الشك وملأ مستشفياتهم بالمرضى النفسيين.

الأمريكيون يعتبرون أنفسهم مسالمين بينما تاريخهم سلسلة من الحروب التوسعية. «ذلك ؟» يقولون لك «إنما كان لحمل الحرية والحضارة». حمل الحرية والحضارة أم إيجاد نافذة على المحيط ؟ لله ذر هذه النوافذ على المحيطات !

ڤيتنام ؟ «تلك ؟ ليتها ما كانت» لا أعرف كلمة تفعل في الأمريكي ما تفعله هذه الكلمة. إنها سبب همومه. قبلها كانت أرضه أرض خير كانت القوة التي ما بعدها قوة ودل الفشل على أنها لم تعد وحدها تملك السلاح. أفرغوا فيها طنا من القنابل وبذروا ألف مليار دولار و50.000 من الأرواح الأمريكية عدى أرواح «العدو». لم يتركوا سلاحاً مباحاً أو محظوراً إلا وجربوه وفي النهاية خرجوا بخفي حنين، كانوا كأنهم يقاتلون الجان.. ولم يكن لهم من سند لا في الداخل ولا في الخارج وكانت الضحية هي الجنود الأمريكيين الذين خاضوا حربا وقف شعبهم ضدها والاقتصاد الأمريكي الذي خربه ثمن الحرب والديموقراطية الأمريكية التي خسرت بعدما أخذ الشباب يهربون إلى الخارج أو يختفون في الداخل.

كانت حرباً تخدم مصالح الطبقة الرأسمالية وتهدف إلى نشر النظام الرأسمالي، لا حرية ولا حضارة ولا يحزنون.

ڤيتنا. صدمة قضت على الخرافة الراسخة القائلة بأن أمريكا لم تخسر حرباً، عثرة دامية ورمز اللعنة. كيف لا تترك في النفس الأمريكية جرحا لا يريد أن يلتئم. شارك فيها مليونان وعاد من عاد بلا نياشين إلى وطن مهزوم استقبلهم ببرودة الموت، عادوا بالاكتئاب وكراهية النظام. وهم إلى الآن يتكلمون في التلفزيون عما فعلوه في ڤيتنام ويبكون. الحكومة يسمونها «بالحكومة الفاسدة» ويقولون : «لن أعود إلى هناك ولو أعطوني مليون دولار».

وتمر السنون ويبقى الاكتئاب وإذا ذهب ترك الخوف والكوابيس فترجع صور الماضي في اليقظة ويصرخون من الفزع ويذكرون أنهم قتلوا أطفالا ويعتقدون أنهم ليست فيهم إنسانية ويفشلون في الاستمرار في العمل أو الزواج فيعيشون في مستشفيات تسمى بمستشفيات قدماء المحاربين.

شخصيات من عالم شكسبير وكأنني به يقول : «الدم يدعو الدم». هل يعرف الأمريكيون ذلك ؟. طيلة مدة إقامتي بينهم لم أجد من يريد أن يثير موضوع فيتنام، على أنهم يعرفون شيئا اسمه اللعنة الإسرائيلية. امرأة من سانت بول قالت لي وهي تهمس : «يعتقد الكثيرون الآن أن قذرة خفية تضرب من يتعاون مع إسرائيل، جاين فوندا وإليزابيث تايلور ذهبوا بها إلى هناك، فماذا حدث ؟ الأولى كسرت ساقها ورجعت مدعومة بعكازين والثانية دخلت لمقابلة مناحيم بيغن فخرجت من مكتبه على محمل إلى المستشفى رأسا. وإنغريد برجمان مثلت دور غولدا مايير فأصيبت بالسرطان وأنور السادات عقد معهم صلحاً منفرداً فمات مقتولاً».

آه لو كان شكسبير حياً ! ولو أن هذا يكفي ! اختل التوازن وأصيبت أمريكيا في عقلها. قدماء المحاربين ومغنون لا هم بنساء ولا هم برجال، الشيطان يلبسهم ويمشي في الأسواق. من أراد أن يعاين انحطاط الغرب فلينظر إلى مطربيه، فما استهدف الفساد قوما إلا وكان اللهو طريقه إليهم وفي سالف العصر والأوان كانت جيوش النصارى على أبواب الأندلس وهي منصرفة إلى تسوية أوتارها. دفعت الثمن غاليا وعوضت ليالي الأنس والموشحات بالطرب الغرناطي والنواح. وهاهم مطربو الغرب كأنما حطت بهم سفينة فضائية من القرية التي أمطرت مطر السّوء. يغنون فيلوثون الحياة والناس تغدو وتروح ولا أحد يتعجب من العجب. رجال الدين يطلعون على شاشات التلفزيون من أمثال صاحبنا فالويل، يتكلمون عن المعذبين في الأرض وعن السلاح النووي وينسون السلاح النووي الكامن بينهم.

لقد تفشت الفاحشة في أمريكا إلى حد يجعلك غير آمن من مقابلة أهلها ومخاطبتهم مرتين في اليوم على الأقل.

نيو أرليون الساحرة «بفضلهم» فقدت سحرها مثل تلك الزهرة الفريدة التي تنبت في أدغال إفريقيا والتي يلقحها الذباب. في ثاني يوم لنا بهذه المدينة خرجنا للعشاء في كامل عددنا. كان الجهد قد نال منا ولا أدري كيف أفضى الحديث مع الصحفي الفرنسي إلى قذارة هذه المدينة بالمعنى المجازي. كان قد تنفس الصعداء أخيرا بعدما وجد وسط هذا الركام من وحدوية البناء الأمريكي شيئا حضاريا يدعى

لانوفيل أورليون، الحمية ذات الوقع الرخيمَ. إيه آثار فرنسا !. وصعقني أن أجد هذا الفرنسي يدافع عن «حق الشاذين في الاختيار» وصعقه أن يجدني أرفض لهم هذا الحق وبلغت به الصاعقة حدها حين سمعني أقول : «حقهم في أن يعدموا في الساحة العمومية وتستريح الإنسانية من شرهم» فقال : «اسمعوا إنها تريد أن تقتل الشاذين» وتقطعت الأحاديث الجانبية وتوجهت إليَّ الأنظار ثم تكلمت الصحفية الإيرلندية والأسترالية وموظف المعهد وكانوا يجلسون جنبا لجنب. لا أذكر ما قالوه بالتفصيل والخلاصة أن للمواطن في بلد حر أن يكون كما يكون... الخ. ووقف الآخرون في صفهم. كنت واحدة من أحد عشر تجد هذا الأمر غير عادي. وقالت الإرلندية والشرر يتطاير من وجهها : «بأي حق ترفضين لهم هذا الحق ؟» فقلت لها وهي الإرلندية الكاثوليكية : «وما موقف دينك ؟» فقالت وانفعالها يزداد : «دعي الدين جانبا». على أي أساس أفسر وقد انطلقت من مبدأ ترك الدين جانبا ؟ قلت : «إن الأمر يتعلق بوباء فتاك ومعدي فهل نتركه يتفشى باسم الحرية ؟ «كان ثلاثتهم يرمقونني وإذا تكلموا تكلموا دفعة واحدة وهم يشرئبون فوق الصحون. ومالت الاسترالية على جارها وقالت بصوت خافت مشرب بالخطورة : «إنها تريد أن تقتلهم». ورغم أن موقفهم فاجأني إلا أن المجرى الذي اتخذته المسألة جعلني أنظر إليه بسخرية ولكن عندما قالت الإرلندية لزميلتها الأسترالية بهمس : «كيف بدأ هذا الموضوع ؟» توقفت سخريتي وقلت لها : «وهل لديك مانع ؟» فأجاب موظف المعهد مكانها وقد نزلت حدته : «إننا نعتقد فقط أن موقفك متطرف» فقلت له : «تقبل من هؤلاء التطرف في سلوكهم ولا تقبل مني التطرف، على حد قولك، في اتخاذ موقف ؟» بعد ذلك رجع الفرنسي للموضوع معتذرا وقال إنه لم يفهم أن المسألة بالنسبة لي دينية وأن اختلاف المواقف راجع إلى اختلاف الحضارات. هؤلاء الغربيون والاعتذار !.

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مومنين﴾.

ورجعت إلى أمريكا بعد عامين فوجدتها تتمايل كمدا ولا تدري من أين تتنزل وباء الطاعون الذي أصابها. وجدت شبكة سي.بي.اس. تبث بانتظام استطلاعا قديما على مجموعة من الشاذين وتقول إنهم قد أصيبوا بعدما شاركوا في الاستطلاع. بالوباء اللعين وتصحبهم إلى حيث يعرضون على الأطباء كالحيوانات المصابة بالجرب ويعيشون في الكئابة والطريق المسدود. ثم تعود مرة أخرى لتقول إنها رجعت إلى من أجرى عليهم الاستطلاع ووجدت أن فلانا وفلانا قد مات بعد كذا وكذا شهرا.

نزل الوباء وحار فيه الغرب سموه في أمريكا AID وفي فرنسا SIDA وهو كما يقول الصحفي الفرنسي كاميل مارتي : «مرض ينشر الرعب. أوجدته السماء لتعاقب به جرائم الأرض. السيدا، أربعة أحرف من الخوف والهلع والنفور والخجل والغموض محملة بكل الخرافات التي حسبنا أننا عزمنا عليها وطردناها. أربعة أحرف تهدم خرافات أخرى ظهرت في سلوكنا الذي حسبنا أنه تحرر وتمرغ في الوحل علمنا الجبار الذي توهمنا أنه قضى على شياطين الأوبئة والأمراض المعدية.. إنها تضرب 90 ٪ من المصابين بالشذوذ وتغلق عليهم باب منبذ ظنوا أنه انتهى بفضل السلوك الذي طلع عليهم كفجر جديد. لقد مزقت أعلامهم واعترف بالواقع أطباء ثقة من أمثال رئيس جمعية الأطباء الشاذين في فرنسا كلود لوجون الذي كتب ذات مرة : «إن المرض لا يقتصر على الشاذين» ثم عاد بعد أشهر ليكتب «لقد أصبحت السيدا في فرنسا مرض الشاذين الفتاك». ما أبعدنا عن القول إنها حدث عابر جاء من الجزر والمناطق الاستوائية والثلث الخالي من الدنيا ! إنها الضربة القاضية التي حطمت الأسطورة بعدما قادنا التحرر إلى الهلاك»

الغرب وهم السلاح النووي

ترى ما هي الأحوال النفسية لصناع هذه الأسلحة وتجارها ؟ هل لهم مشاعر ؟ وضمائر ؟ هل هم من فصيلة الإنسان ؟

منذ كان الإنسان وهو مشغول بخزن السلاح ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾. إلا أنه لا يمكن للعالم أن يكون قد خزن منه في زمن من الأزمنة ما يخزنه الآن أو صرف عليه من الأموال ما يصرفه أو أن يكون السلاح قد وصل إلى هذا الحد من التطور وبهذه السرعة التي تجعل كل عام جديد يشهد ظهور أنواع أكثر فتكا يخيف الغرب منها بشكل خاص السلاح النووي.

تقول دراسة نشرتها جامعة كامبريدج في 1983 إن عدد القنابل النووية بلغ في 1980 خمسين ألف قنبلة لها قدرة على التخريب تفوق بمليون مرة وربع ما كان موجودا في 1945. والسبب هو الخلاف بين الاتحاد السفياتي والولايات المتحدة وما تميز به علاقاتها من عدم ثقة متبادل. إن الأمريكين ومعهم أصدقاؤهم في الحلف الأطلسي يعتقدون أن الاتحاد السفياتي يريد فرض شيوعيته والاتحاد السوفياتي ومعه أصدقاؤه في حلف وارسو يعتقد أن أمريكا في زعامة الغرب تريد تقويض أركانه فلم يعد من ضمان للجانبيين إلا القوة العسكرية حتى أصبح ما تخرجه مصانع السلاح هنا وهناك شيئا لا يصدقه العقل، يميزه مجهود متواصل للتطوير وارتفاع مستمر في الثمن.

إن التباري في إنتاج وامتلاك وتطوير السلاح معناه تبارى في بسط النفوذ عن طريق الصراع على تسليح مواقع الفتنة تسليحا تكون نتيجته هي السباق الجهوي نحو التسلح فما يشترى بلد ما سلاحا حتى يبادر جاره لشراء نفس السلاح خوفا على نفسه ولن يعدم من يبيعه. إن هناك تجار السلاح الذين لا يهمهم إلا ضمان الاستمرار لصناعتهم الحربية وهؤلاء هم فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية وايطاليا. أما المزود السفياتي والأمريكي فإن غايته هي كسب الأصدقاء والحصول على تسهيلات استعمال المطارات والموانيء والقواعد العسكرية في وقت الحاجة. يكفي أن تبرهن عن عدائك للشيوعية لتبادر أمريكا إلى تزويدك بالسلاح وأن تكون حركة تحرير تريد قلب النظام الموالي للرأسمالية ليبادر الاتحاد السوفياتي إلى تزويدك بالسلاح وقد يفعلان ذلك لمجرد إبقائك خارج نفوذ الطرف الآخر والنتيجة أن العالم أصبح على فوهة بركان وبؤر الفتن في تزايد والأنظمة العسكرية الدكتاتورية والعنصرية تعيش والخلاف لا يحله إلا السلاح...

قلت لأحد أعضاء حركة السلام المناوئة للسلاح النووي في الولايات المتحدة : «إن الخطر القائم هو الحروب الجهوية والسلاح التقليدي فلما لا تنظمون حملات ضدها ؟». وقال : «إن انتشار معرفة التقنية النووية وانتشار المفاعلات النووية يمكن، برغم القيود، من تحويل طاقة المفاعل لصنع القنابل النووية» وبعبارة أوضح وبتعبير عضو آخر في هذه الحركة : «فإن القنابل النووية عندما تتسرب إلى العالم الثالث تصبح خطرا على الكرة الأرضية لأننا لن نأمن أن تقع في يد مجنون» وكأن الجنون مقصور على العالم الثالث. إن المجنون الذي ألقى بالقنبلة الذرية على هيروشيما كان أمريكيا وهيتلير ظهر في أوربا ولم يظهر في العالم الثالث. هل نسوا القنبلة الذرية وبهذه السرعة ؟. تلك المصيبة التي ما عرفوا آثارها حتى أردفوها بقنبلة مماثلة على نكازاكي.

يقولون إن هذه القنبلة عندما ألقيت على هيروشيما أحدثت بريقا يعمي الأبصار تلاه دوى هائل. وتحول الإنفجار إلى كتلة ملتهبة تفوق حرارتها حرارة باطن الشمس. الذين مستهم لم يبق منهم شيء وأصيب الآخرون بحروق على بعد

كيلومتر وفي ظرف نصف ساعة تحول مربع كيلومترين على كيلومترين إلى جحيم وشبت النار هنا وهناك ثم اتصلت لتصبح حريقا واحدا أودى بحياة 75.000 في نصف ساعة. ووصل الماء إلى درجة الغليان ثم تبخر وتجمع مع رماد الناس والأشياء ليسقط مطرا حارا أسود. ودفعت قوة الانفجار والنار بجذار الهواء بسرعة مئات الكيلومترات في الساعة وسقطت البنايات على بعد كيلومترين وأرسلت القنبلة إشعاعاتها واستمرت شظاياها ترسل الإشعاع. وبعد أيام أصاب من صارعوا الموت ورجال الانقاذ مرض غريب فبدؤوا ينزفون ويفقدون شعرهم وبدأت تظهر عليهم بقع داكنة وضعف شديد وتبين أن جراحهم لا تلتئم وأنهم يعانون ألما فظيعا وظلوا على تلك الحال حتى لاقوا حتفهم والذين عاشوا أصيبوا في الغالب بداء السرطان وماتوا منه ووضعت الحوامل أطفالا مشوهين وبلغ عدد الضحايا 200.000. هذه هي القنبلة الذرية التي لا تعد شيئا بجانب القنبلة النووية وإن كان تصنيف السلاح لا يعني شيئا بعد القنبلة التي صنعتها أمريكا خصيصا لفيتنام ووضعتها على الأرض بالمظلات حيث تفجرت كياماوياتها بقوة هدمت وقتلت كل شيء حتى الديدان في باطن الأرض. إنها قنبلة تقليدية ولكن قوتها لا يفوقها إلا الانفجار النووي.

إننا لا نعرف نوع الخوف الذي يعيش فيه الغرب بسبب ما تملكه القوتان الأعظم من سلاح نووي مع ما يشوب علاقتها من تربص دائم. ماذا لو وصلا إلى حد الاصطدام ؟ هل يصطدمان ؟ هل يستعملان مخزونها النووي ؟ هل وهل وهل ؟... يقول البعض إنها لن يتجاوزا حد التهديد وأنها سياسة ردع لا غير وأن خزن السلاح النووي يراد به صد العدوان وإحلال التوازن لمنع الحرب. ويقول آخرون : نعم، ولكنها سياسة تبقي الناس في خوف دائم ويجردها تطور السلاح التيكنولوجي من كل معنى طالما أن الحرب ستقع به لا محالة.

لقد بلغ السيل الزبى. تجارة السلاح تأجج الفتن وتستنزف الدول الفقيرة وسباق التسلح النووي يخيف الغرب ويستنزف الدول الكبرى. إنهم يعرفون كل ذلك ولكن من يقنعهم بنزع السلاح وقد قام به سلطانهم ؟.

وعدا القنبلة التي صنعت لفيتنام هناك أسلحة حديثة مثل القنابل العنقودية والنابالم. وتصف دراسة جامعة كامبردج الأولى بأنها وعاء يتضمن من 600 قنبلة صغيرة إلى 900 يقذف به من الطائرات فينفتح وينشر قنابله وأن هذه القنابل تنفجر فوق الأرض أو على مقربة منها فترسل شظايا تطير بسرعة وتنفذ في الأشياء والناس لتتمزق بداخلهم.

أما النابلم فهو مادة طورتها الولايات المتحدة، يشبه البترول الخاتر ويشتعل في المناخ الحار ويلقى على الناس فيحترق ويلتصق بهم ولا يمكن مسحه وحيث إن احتراقه يدوم مدة طويلة بحرارة عالية فإنه يصيب بحروق تصل إلى العظم أحيانا.

ترى ما هي الأحوال النفسية لصناع هذه الأسلحة وتجارها ؟ هل لهم مشاعر ؟ وضمائر ؟ هل هم من فصيلة الإنسان ؟.

اخر الاخبار يفيد أن الطيار الذي ألقى القنبلة الذرية على هيروشيما انتحر. والآخرون ؟.

عرفت في مكاليستر طالبة فرنسية أبوها مهندس في شركة هانويل التي تصنع بسانت بول القنابل العنقودية التي كان النقاش حولها موضوع الساعة وقت ذاك بعدما استعملتها إسرائيل في غزو لبنان. وكانت هذه الطالبة تعاني من اضطراب ظاهر فتشكو من الضجر واليأس وهي في ربيع العمر ثم علمت أن أختها التوأم الوحيدة انتحرت في العام الماضي بحرم الجامعة. هل ينفع ما يتقاضاه أبوها من أموال هانيويل لإرجاع ابنتيه الضائعتين ؟. ولماذا يوجه الإنسان قدرته العقلية لصنع الشر وتطويره ؟ هل العبرة بالتطوير ؟ ألم تهزم أمريكا في فيتنام بكل أسلحتها المتطورة ؟ وماذا جناه الجانبان من ذلك عدا التبذير ؟. تقول دراسة كامبريدج إن قذيفة تاو المضادة للمدرعات التي يملكها الحلف الأطلسي ثمنها ثلاث مائة ألف دولار وأنها قادرة على تحطيم مدرعة بخمس مائة ألف دولار.

هناك أيضا ضمن السلاح الحديث السلاح البكترولوجي والكيماوي وهو عبارة أحيانا عن غاز يكفي أن يستنشقه الإنسان أو أن يمس جلده ليقضي عليه ورغم أنه ممنوع بنص بروتوكول جونيف للكيماويات السامة إلا أن الدول تحتفظ بحق استعماله

إذا استعمله العدو ولـذلـك فهو يصنع لأغراض دفـاعيـة. هـذا الغـاز تطوره أمريكا وتزيـد من إنتـاجـه وتخزن منـه لمواكبـة السوفيـات كما تتزود منـه قوتـا حلفي وارسو والأطلسي.

أما السلاح البكترولوجي فهو صورة متطورة لما فعله الأمريكيون بـالهنود الحمر عندمـا وزعوا عليهم أغطيـة ومنـاديل أنف واردة من مستشفى يعـالج فيـه مصـابون بالجـذري. إن جراثيم الأوبئـة تنتشر بسرعـة ويكفي قـدر يسير منهـا يحملـه المـاء أو الجرذان لبدء الوباء في ديار العـدو. ولكن من يضمن أنـه سينحصر فيهـا ؟ تلـك هي المسـألـة التي شغلت بـال الـدول العظمى بـالإضـافـة إلى الخـوف من أن يقـع في يـد الإرهابيين ولذا عمدوا إلى توقيع اتفاقية السلاح البيولوجي سنة 1979.

وتقول دراسـة كامبردج إن إسرائيل تصنـع السـلاح النـووي وإن غيرهـا يفعـل فعلهـا وإن الهنـد وبـاكستـان في الطريق وإن العراق كانت في الطريق لـو لم تخرب إسرائيل مفاعلهـا النووي وإن جنوب إفريقيـا قـامت بتجربـة نوويـة في سنـة 1979 وإن احتمال قيام حرب نووية ليس بالأمر المستبعـد وإن مـا يتوفر للقوتين العظميين من سلاح نووي يفوق القنبلـة الـذريـة بمليـون مرة وإن السـلاح النـووي هـو قطب رحى السباق بين الدولتين.

لقد خصصت الأمم المتحدة عشرية لنزع السلاح خلال السبعينـات فـماذا وقع ؟ ضاعفت الدولتان العظميان قـذائفهما الصـاروخيـة ووضعتـا خطـة لمواصلـة ذلـك في النصف الأول من الثمانينـات واستمرت التجـارب النوويـة تحت سطح الأرض بعـدمـا منعت اتفاقية 1963 إجرائها فوق سطح الأرض.

وأبعدت الأمم المتحدة منذ 1960 عن مفـاوضـات سولت (مفـاوضـات الحـد من الأسلحة الستراتيجية) والتي لا تعني في واقع الأمر شيئا. لقد وقعت إحدى اتفـاقيـاتهـا في 1979 فضاعف الجانبان سلاحهما النووي وأجريا تجارب جديـدة (كل لحمـايـة أمنـه ومجابهة قيود الاتفـاقيـة). وغزا الاتحـاد السوفيـاتي أفغـانستـان فـانتهزهـا كارتر فرصـة لإبطـال مفعول الاتفـاقيـة ولمـا يمض على توقيعهـا إلا أشهر. وجـاء ريغن فبـدأ عهـدا جديدا من تخزين السلاح بنوعيه واتهمت إدارته السابقين بإضعـاف الـدفـاع الأمريكي

وقالت إن عليها أن تصرف في خمس سنوات ألف مليار دولار للحاق بالركب السفياتي.

وإلى هنا نفذ صبر الغرب الشعبي فبدأت الحركات تظهر في أوروبا وتتكاثر وتحتج. وتأسست حركات السلام المناوئة للسلاح النووي في 1980 وبدأت تنظم المظاهرات للتعبير عن خوف الناس وعدم تصديقهم لأسطورة أن يكون السلاح النووي قادرا على أي ردع أو أية محافظة على أي سلام ولكن هل يكفي الخروج إلى الشوارع لتغيير سياسات الحكومات ؟.

متاهة الحكم الأمريكي

«سمعت في الولايات المتحدة من يتكلمون
عن الوطن ووجدت وطنية حقيقة في
الشعب، لكنني عبثا حاولت البحث عنها
عند من يحكمونه».

دوتوكفيل

شخصية الرئيس في الجمهوريات تقليد لشخصية الملك. وهي في أمريكا مطبوعة بالحنين الرئاسي والشعبي إلى الملكية التي يمارسها الرئيس فهو حيثما حل وارتحل يستقبل بالمراسم ووجهاء تصطف لتقدم الولاء وموسيقى. والناس تسجل حركاته وسكناته وتستشهد بأقواله وأفعاله وتطري خصاله وتعظم شخصيته ومؤسسته. وزوجته ملكة في الخفاء. لها من الملك مميزاته ولا عجب فالرئيس الأمريكي يجمع بين دور الملك والوزير الأول في النظام البريطاني.

الرئيس هو الساهر على السلطتين التشريعية والتنفيذية يعين الوزراء والسفراء ومديري الوكالات الحكومية بموافقة الكونغريس ومع ذلك فإن الوزراء لا يدينون له بالولاء لما يجريه على ميزانياتهم من تخفيضات حتى شاع القول : «إن الوزراء هم الأعداء الطبيعيون للرئيس» فعمد هذا الأخير إلى الاعتماد على أطر البيت الأبيض وتقويتهم وممارسة سلطته من خلالهم. والرئيس يصدر العفو ويبرم الاتفاقيات بموافقة ثلثي أعضاء الكونغريس ويعين القضاة والسفراء ويستقبل السفراء المعتمدين في واشنطن ويطلب عقد دورات الكونغريس الخاصة ويعد الرئيس الأعلى للقوات

المسلحة. وللكونغريس حق عزله بتهمة الخيانة أو الرشوة بعد محاكمة يرأسها رئيس المجلس الأعلى للقضاء ينبغي أن يوافق فيها على الإدانة ثلثا الأعضاء وعند ذلك يخلفه نائبه فإن لم يوجد خلفه رئيس مجلس النواب.

مبنى الكونغريس والمجلس الأعلى للقضاء معبدان إغريقيان جيء بهما إلى واشنطن. إنه الحنين إلى مهابة الملكيات.

ويتكون الكونغريس من مجلسين، مجلس الشيوخ ومجلس النواب ويعود تحديد عدد أعضائهما إلى الكونغريس نفسه، بحيث يكون عدد الأعضاء في مجلس الشيوخ بحسب عدد سكان الولايات وفي مجلس النواب اثنان عن كل ولاية وأحيانا واحدا فقط. وينص الدستور على إجراء إحصاء للسكان كل عشر سنوات يعاد على ضوئه تقسيم مقاعد مجلس الشيوخ. ويقضي المنتخب فترة ست سنوات في الكونغريس يعاد خلالها انتخاب ثلث الأعضاء كل سنتين بحيث يبقى هناك دائما من لهم اطلاع على سير الأمور.

الأعمار في مجلس النواب لا تقل عن 25 سنة وهي في مجلس الشيوخ لا تقل عن 30 سنة ويشترط في أعضاء المجلسين أن يكونوا أمريكيي المولد أو حازوا الجنسية منذ سبع سنوات على الأقل وأن يكونوا مقيمين في الولاية التي يمثلونها. وكل مجلس رقيب على المجلس الآخر، يصوت من جديد على مشاريع قوانينه فإن لم يتوفر النصاب تشكلت لجنة مشتركة للوفاق. ويختص مجلس النواب في القوانين المالية ومجلس الشيوخ في المصادقة على تعيينات الرئيس واتفاقياته الدولية. رئيس مجلس النواب منتخب من بين الأعضاء ورئيس الشيوخ هو نائب رئيس الجمهورية. اللجن في مجلس النواب 23 وفي مجلس الشيوخ 18 وتكلف بدراسة مشاريع القوانين فإن لم تعر إحداها اهتماما، وهذا من حقها، أمكن إلزامها بذلك بعريضة من أحد المجلسين، فإذا خرجت العريضة من مجلس النواب حملت 218 توقيعا وإذا خرجت من مجلس الشيوخ حملت توقيع الأغلبية. وهناك لجن صغرى تتفرع عن اللجن الأساسية ويتحكم في هذه وتلك حزب الأغلبية. مشاريع القوانين يقدمها الرئيس أو الوزراء أو المواطنون أو المنظمات فإذا صادقت عليها اللجنة المختصة أرجعتها إلى المجلس الآخر

ومن هنــاك إلى الرئيس فـإذا استعمـل حـق الفيتـو عـاد مشروع القــانــون إلى الكونغريس وأصبح قانونا إذا توفرت له أصوات ثلثي الأعضاء.

ويقوم الكونغريس بإجراء تحقيقات مفتوحة في مدى الحاجة للتشريعات المقترحة ومدى فعالية التشريعات القائمة ويستعين في ذلك بالخبراء.

كثيرا ما نسمع كلمة لوبي وتحز في أنفسنا نحن العرب لأنها مصدر الداء الإسرائيلي. وهذا اللوبي عبارة عن كتلة تشمل مجموعات الضغط في الكونغريس. ذلك أن أمريكا بلد تكتلات مصلحية وكلما وجد أصحاب مصالح متشابهة تجمعوا وشكلوا اتحادا منتخبا يمولونه. قد تكون المصلحة اقتصادية أو دينية أو خيرية أو مجرد الرغبة في حمل السلاح. ويقوم الاتحاد بالتأثير على السياسة لدى السلطتين بأي وجه ومهما كانت النتيجة ولو أدى الأمر إلى الإضرار بالصالح العام، المهم ألا تتضرر مصالحه، ولوبي الأطباء خير مثال على ذلك. لقد منع التصويت على مشروع قانون حول مجانية العلاج لأنه يقضي على تجارة الطب ويضر بمصلحة الأطباء. واللوبي يبدأ نشاطه منذ ما قبل الانتخابات فيركز على المرشح الذي يتوسم فيه تعاطفا مع مصلحة جماعته ويدعمه بالمال والرجال. ومعنى الكلمة اللغوي ردهة في فندق أو مسرح أو ما شابه ذلك ويقصد بها التأثير في الكونغريس خارج جلساته الرسمية أي ما نسميه نحن بأعمال الكواليس. وكل جماعة قاذرة ماديا توظف لوبي يكون ممثلها الدائم في كواليس الكونغريس وعينها الساهرة. فإذا كانت الجماعة ذات بال أصبح لوبيها جيشا بمكتب دائم في واشنطن ومدير ومساعد مدير وباحثين وخبراء وهيئة تحرير وإداريين. وقوة اللوبي تكمن في تحكمه في المعلومات ومعرفته بالشهود والخبراء وتقديمه لذلك كله على طبق للجنة المختصة كوسيلة إقناع تضاف إلى ماله من أنصار جاء بهم إلى المجلسين بعرق الجبين بعدما مول حملاتهم فطبع ووزع منشوراتهم ومول إعلاناتهم ودفع قيمة فاتوراتهم وأفرغ عليهم وعلى زوجاتهم ما يليق من لباس. إن اللوبي جيش حقا يعمل بستراتيجية الجيوش التي لا تخيب فإن خابت لجأت جماعته إلى القضاء وتابعت الكونغريس.

هناك كلمة مهينة تدل على أعمال اللوبي هذه التي تتم قانونيا وفي واضحة النهار داخل مصدر القانون نفسه. إن أمريكا بلد العجائب والمصالح. وهناك ائتلاف مصلحي أمريكي آخر هو الحزب الذي يلجأ إلى الجماعات في بحثه عن الأصوات وتلجأ هي إليه لأن منافسها في الحزب الآخر. هناك الحزب الجمهوري والحزب الديموقراطي اللذان لا علاقة لاسميها بالإيديولوجية فالأحزاب الأمريكية غيز الأحزاب الأوروبية ذات البرامج الاقتصادية والاجتماعية. وهناك ما يعرف بالأحزاب الثالثة التي تقوم على اختيار ضيق وتركز على مرشح معين فيكون من السهل على أحد الحزبين الرئيسيين أن يبتلعها في نطاق بحثه عن الحلفاء. والحزب له فروع في الولايات متفاوتة الأهمية وله لجنة وطنية، يمثل فيها كل ولاية عضوان ومهمة هذه اللجنة أن تضمن له الوجود في انتظار الانتخابات وتسهر على تنظيم مؤتمره كل أربع سنوات وهو الحدث الأهم في حياته.

والناخبون أنفسهم تضامن مصلحي ومن غرائب النظام الأمريكي أن الناخب لا يصوت على مرشح حزبه بالضرورة لأن ما يهمه هو مصلحته الخاصة وموقف المرشحين منها فإن وجد من يدافع عنها أعطاه صوته ولو كان من الحزب الآخر ولذا فإن مرشحي الكونغريس عندما يصلون إلى الكونغريس لا يبقى هناك ما يجمع بينهم ويصبح من الصعب معرفة من يتزعم الحزب غير الحاكم على عكس الحزب الحاكم الذي يعد زعيمه هو الرئيس، يمارس عليه سلطته ويوجه لجنته الوطنية ويعين رئيسها ويطبعه بشخصيته.

أدهشني أن يكون رجال الأعمال في أمريكا أكثر قدرة وكفاءة من رجال السياسة وكأن العبقريات الأمريكية تتوجه إلى ما هو «أهم» صنع المال، ذلك أن الذكاء والكفاءة والخبرة ليست شرطا لولوج المهام الانتخابية. كن وسيما ورياضيا واعرف كيف تختار ثيابك وتسريحة شعرك وزوجتك وأتقن حملتك الإنتخابية وستنال مقعدك. لقد نجح أحد ولاة كانتاكي لأن زوجته ملكة جمال أمريكا سابقا.

والقضاء هو الدعامة الثالثة في النظام الأمريكي وينقسم إلى قضاء فدرالي وقضاء الولاية. وهناك 91 محكمة فيدرالية و11 محكمة استئناف و3 محاكم خاصة

ومجلس أعلى للقضاء، عدد القضاة فية 9، وهو أعلى هيئة وحارس الدستور. ينظر في مطابقة القانون وتصرف المسؤولين للدستور وفي تطبيق بنوده وتفسيرها وتطبيق القانون وتفسيره وتحديد مقصود الكونغريس منه. كما يبث في القضايا المرتبطة بالاتفاقيات البحرية والقضايا التي يكون أحد أطرافها وزراء أو سفراء أو قناصل أو الحكومة والقضايا التي يكون طرفاها المواطن والولاية أو المواطن وحكومة أجنبية. ولا دخل للكونغريس في المجلس الأعلى للقضاء إلا إذا اقتضى الأمر تحديد اختصاصه أو تعديل سلطته بتعديل الدستور نفسه لأن أحكامه مستمدة من الدستور. إن قضاته يتوفرون على سلطة سياسية لا يتوفر عليها أي قاضي في أية بلاد. إن لهم صلاحية عدم تطبيق القوانين التي يرون أنها مخالفة للدستور والبث في النزاعات القائمة بين الحكومة والكونغريس والحكومة والولاية فإن صلحوا صلحت البلاد وإن فسدوا فسدت وزجوا بها في نار الحرب الأهلية.

هذه هي أعمدة النظام الأمريكي الثلاثة ولكن ذلك لا يعني أنها المصادر الوحيدة للسلطة: إن هناك مجموعات الضغط أو اللوبيات ونفوذها الجبار الذي تعتمد فيه على الترغيب والترهيب، وهناك الصحافة، تلك السلطة الرابعة. ونحن الذين عاصرنا ووترغيت نعرف قوة الصحافة الأمريكية. إن هناك كتاب افتتاحيات في صحف كبرى يعدون بمثابة حكماء الأمة، «يطلعون على الوثائق الهامة قبل كبار الموظفين» كما يقول وليام ريغرز في كتابه «الحكومة الأخرى». وتستمد الصحافة نفوذها من تأثيرها على الرأي العام وتوجيهها له إبان الانتخابات. لذلك يسمى رجالها بسماسرة السلطة ويجعلهم ذلك غير شعبيين. إن الحكم الأمريكي متاهة، الحكومة والكونغريس واللوبي والصحافة، متاهة يعرف الدهاة كيف يسلكونها لقضاء مآربهم سواء كانوا جماعات أو بلدانا من نوع إسرائيل.

أين الوطنية ؟. والمصلحة العليا ؟. لقد كان ألكسندر دوتوكفيل صائبا عندما قال : «سمعت في الولايات المتحدة من يتكلمون عن الوطن ووجدت وطنية حقيقية في الشعب ولكنني عبثا حاولت البحث عنها عند من يحكمونه».

التعليم في أمريكا

«عندما تتوفر للأمريكي الرغبة في الدراسة
لا يكون لديه الوقت وعندما يتوفر الوقت
لا تكون الرغبة»

دوتوكفيل

أصبحت أمريكا اليوم قبلة أثرياء العالم من طلاب علم وعلاج وأصبح إرسال الأبناء إلى مدارسها دليل تقدم اجتماعي ملموس وبرهانا على أن المرء قد دخل في زمرة البورجوازيين. بالأمس القريب كانت الفرنسية هي لغة الثراء والحضارة. تكسرت على صخور الشاطىء الآن وتطايرت شظايا في الهواء وسبحان من له الدوام. مع ذلك ما من لغة غربية تعدل ثقافتها وفكرها المتقد الناقد الذي لا يتبنى الأفكار الجاهزة التي صنعتها له الأغلبية.

ليس هناك نظام تعليم واحد في أمريكا وإنما خمسون نظاما بعدد الولايات لا يشرف عليه ما يعرف عندنا بوزارات التعليم وإنما يعود ذلك إلى الولاية وفي بعض الولايات تعود بعض السلطات إلى الجماعات المحلية التي تختار المقرر والمعلمين والإداريين وتضبط إيقاع العام الدراسي وساعات الدراسة. وهناك في جميع الولايات مجلس تعليم ومندوب تعينها حكومة الولاية أو ينتخبان ويحرص المندوب على تطبيق قانون الولاية في المدارس بحيث أن القوانين الإدارية تختلف من ولاية لأخرى كما أنه يعين الأساتذة ويكون مسؤولا أمام السلطة أو المجلس المنتخب. ويقوم المجلس في بعض الولايات باختيار المقرر وبناء المدارس وتحديد ساعات الدرس وشروط

الأمن والنظافة والصيانة. وتأتي اعتمادات التعليم الابتدائي والثانوي من الضرائب العقارية ومن الحكومتين.

بناية المدرسة تشمل زيادة على المرافق المعروفة قاعات موسيقى وأوراشا للرسم والنحت والميكانيك وأغلب أبناء الأمريكيين يترددون على المدارس الرسمية التي يلقنون فيها مبادىء الاستقلال المالي والإنتاج وواجبات المواطنة. لقد أصبحت المساواة في التعليم ثابتة بنص مرسوم صادر عن المجلس الأعلى للقضاء في 1954 يمنع العنصرية في مدارس الدولة. وبذلت جهود من أجل عدم الفصل بين الأطفال في المدارس لأسباب عنصرية أو إكراه أبناء السلالات غير الأوروبية أو الأطفال المعوقين على تلقي تعليم أدنى فجاءت فكرة النقل المدرسي أو ما يعرف بال Busing بمعنى أن أبناء السود ينقلون بالحافلات إلى المدارس الموجودة في أحياء البيض ليقع الاختلاط وهي فكرة عانى أصحابها الأمرين في محاولتهم الإقناع بأن أمة تتعدد فيها الأجناس من واجبها أن تمهد لهم الالتقاء بدءا بالمدرسة. وتوجد في الولايات المتحدة أنواع من المدارس الثانوية منها ثانوية التعليم العام والتعليم العصري والمهني والتقني تستغرق الدراسة فيها من ثلاث إلي ست سنوات وتلقن مدارس التعليم المهني صناعة السيارات والإلكترونيك إلى جانب مهن أخرى ويأتيها الطلبة من كل الجهات، كما أن هناك في المدن الكبرى معاهد للفنون. كانت لجنة إعادة تنظيم التعليم الثانوي قد قررت في 1918 أن التعليم في النظام الديموقراطي يجب أن يني الاستعداد الذي يسمح بإيجاد عمل ومكان في المجتمع فركزت على الحرف وابتعدت عن الفكر والآداب وأصبح التعليم الثانوي يرمي إلى هدفين اثنين هما التخصص الذي يفضي إلى عمل نافع وتوحيد الأفكار والمثل والمشاعر من أجل التضامن الاجتماعي. لقد جاءت هذه اللجنة بمنظور جديد لدور المدرسة الرسمية أصبح التعليم معه يعني التكوين إلى درجة جعلت لجنة إصلاح التعليم تكتب في 1970 : «إن عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية في ازدياد لكن ذلك لا يعني شيئا لأنهم يجهلون كل شيء عن المواد الأساسية إن لم نقل إنهم أميون». ولاحظت أن الذين يتابعون تعليمهم العالي من بين هؤلاء عددهم قليل لانخفاض المستوى. وقد كانت سنة 1970 أسوء سنة في تاريخ التعليم الأمريكي فقد

كانت حرب فيتنام في نهايتها، تلك الحرب التي أثرت على الشباب الأمريكي تأثيرا خطيرا فدفعت به إلى الخمر والمخدرات والجرائم والانتحار..

وفي 1972 بدأت المدارس الثانوية خطة الإعداد للشغل بالتمرين في الأوساط المهنية وهي خطة تجمع بين التعليم والعمل.

وهناك تعليم خاص بالمعوقين جاء نتيجة لضغوط الآباء على المنتخبين والحكام التي وصلت أحيانا إلى حد المتابعة أمام المحاكم وهناك الآن فصول خاصة بذوي الإصابات الخطيرة ومكتب يمول الأبحاث ويكون المربين وينظم البرامج التربوية.

أما التعليم العالي فيشرف عليه مجلس تعينه الولاية. والجامعات رسمية وحرة، تمول الأولى حكومة الولاية والحكومة الفدرالية ومداخيل التسجيل التي ترتفع قيمتها إذا كان الطالب من خارج الولاية وتمول الثانية من تكاليف دراسة الطلبة التي يدفعها آباؤهم أو يستدينونها أو من المنح التي تدفعها لهم المؤسسات بعد التزامهم بالعمل معها. وتعمد الجامعات الحرة إلى طلب معونة الدولة حتى لا تلزم بإغلاق أبوابها. وتأتي هذه المعونة مقابل إقرار المواد الأساسية مثل اللغة والرياضيات والتاريخ والتربية المدنية. ونظرا لارتفاع تكاليف الدراسة في الجامعات الحرة يعمد الأمريكي أحيانا إلى توفير مصاريفها حتى إذا ما أحيل على المعاش عاد إلى مقاعد الدرس مما دفع بتوكفيل إلى القول : «لا أظن أن هناك بلدا في العالم يقل فيه الجهال والعلماء على السواء مثل أمريكا فالتعليم الابتدائي فيها في متناول الجميع والتعليم العالي يوشك ألا يكون في متناول أحد. إن عدد الأغنياء في أمريكا قليل والبقية أصحاب مهن ولما كانت المهن تحتاج للتعلم فالأمريكيون لا يمنحون الثقافة سوى السنوات الأولى من أعمارهم ويبدؤون حياتهم المهنية وهم في الخامسة عشرة، أي في السن التي يبدأ فيها تعليم الفرنسي. وحين يواصل الأمريكي تعليمه بعد هذه السن يكون ذلك في نطاق التخصص فيدرس العلوم كما يتعلم آخرون مهنة ولا يأخذ منها إلا الجانب المعترف بنفعه. لقد كان أغلب الأغنياء في أمريكا فقراء وأغلب العاطلين عاملين وهكذا عندما تتوفر للأمريكي الرغبة في الدراسة لا يكون لديه الوقت

وعندما يتوفر له الوقت لا تكون الرغبة». ويخلص دوتوكفيل إلى أن هذا هو السبب في قلة الأدباء البارزين في أمريكا.

وهناك جامعات تمولها الولاية وتسيرها مجالس بعد موافقة منظمات إقليمية على البرامج والخطوط العريضة. وهناك معاهد بحث ومجموعات ضغط. على أن الأساتذة هم الذين يحددون مضمون التعليم العالي وشروط القبول ومدة الدراسة وطرق التنقيط وتوظيف الأساتذة وليس ثمة من يستطيع منعهم من ذلك. وهناك مؤسسات يجري عليها قانون التعليم العالي وتدرس مواد كالتمريض وألعاب السيرك. ومن مميزات الجامعة الأمريكية أبحاثها التي تضعها رهن إشارة القطاعات المختلفة مثل الزراعة وعلم الاجتماع والإدارة والأعمال وهذا ما أكسبها سمعتها العالمية ومثل هذا النظام لا يوجد إلا في اليابان.

فهـرس

مقدمة الطبعة الثانية 4

أزهار الدفلى 35

كمين الإعلام الأمريكي 55

العرب والإسلام في أمريكا 65

الحلـــم 75

طريق المعاهدات المحروقة 91

الأنثوية الأمريكية ونار الثورة التي خمدت 113

الفقراء في أمريكا 119

الغرب وهم السلاح النووي 135

متاهة الحكم الامريكي 141

التعليم في أمريكا 147

صدر للمؤلفة

- □ **محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته.**
  مترجم من اللغة الإنجليزية.

- □ **بضع سنبلات خضر.**
  خواطر الكاتبة عندما كانت طالبة في لندن.

- □ **عام الفيل.**
  رواية ومجموعة من القصص القصيرة من صميم البيئة المغربية.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

رقم الإيداع القانوني 1991/387



ليلى أبوزيد

- حاصلة على الإجازة في اللغة الانجليزية وآدابها من جامعتي محمد الخامس بالرباط وجامعة تكساس بأوستين.
- منتجة وصحفية سابقة بالإذاعة الوطنية والتلفزة بالرباط.
- ملحقة بعدة دواوين وزارية، حاليا ملحقة بديوان رئيس البرلمان.
- ترجمت من الإنجليزية إلى العربية محمد الخامس منذ توليه العرش إلى يوم وفاته، مطبعة الأنباء، الرباط 1977، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979.
- ألفت بضع سنبلات خضر عن لندن، الدار التونسية للنشر، تونس 1978.
- عام الفيل رواية ومجموعة قصصية، دار الثقافة الجديدة، الرباط 1983، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1987، دار نشر جامعة تكساس، أوستين، الطبعة الإنجليزية 1989.
- أمريكا الوجه الآخر، مطبعة المحمدية، 1986، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1991.
- رجوع إلى طفولة، تحت الطبع بالعربية والإنجليزية.



مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء